

القصص العالمية للجميع

كُنت جَاسُوسًا

سُومرست مُوم







كنت جاسوساً



القصص العالمية للجميع

كنت جاسوسًا

سومرست موم

ترجمة

د. ابراهيم اسكندر

منشورات
المكتبة الحديثة - بيروت
دار الشرق العربي - بيروت



مؤلف الرواية

وليم سومرست موم ، الكاتب الروائى المعاصر ، اشتهر بكثرة انتاجه ، وانتشار مؤلفاته التى لا يقل عددها عن ستين مؤلفا مابين روايات مسرحية ، وقصص ، وكتب سياسية . ويمتاز بأنه كاتب واقعى ، يستمد قصصه من الحياة ، ومن ملاحظاته للناس فى أسفاره العديدة . وهو يكره الحواشى والاوصاف ، ويعمد الى الوقائع مباشرة ، يمزج الحقيقة بالخيال ، مزج كاتب خبير بفن القصص ، عليم بطبائع النفوس ، ميال الى السخرية

ولد سنة ١٨٧٤ وتعلم فى « مدرسة الملك » بكانتربرى ورحل فى نشأته الى باريس فتعلم اللغة الفرنسية واتقنها ، ثم عاد يدرس فى انجلترا ، وبعدئذ انتقل الى جامعة هيدلبرج بالمانيا ، ثم سافر الى ايطاليا وتعلم اللغة الإيطالية بمدينة فلورنس . وهكذا جمع فى سنى شبابه محصولا وافرا من المعارف والمعلومات واتقن عدة لغات . وقد الف اول رواية بعنوان « ليزا أوف لمبث » وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، واستمد موضوعها من ملاحظاته وهو طالب طب يتدرب فى أحد المستشفيات بلندن ، حيث عرف الفقر ووقف على ظروف الفقراء

ومع انه درس الطب ، لم تجذبه مهنة الطب ، كما لم تعجبه مهنة المحاماة من قبل ، ومال الى الادب وحده ، خصوصا بعد أن نجحت روايته الاولى نجاحا رائعا ، وعدت من بدائع القصص الواقعى . وكان أبوه وجده محاميين ، وقد وصل أخوه اللورد موم الى منصب وزير مالية بريطانيا ، ولكن وليم سومرست آثر الادب على كل منصب ، وكل مهنة اخرى

وبعد نجاح روايته الاولى شرع يؤلف للمسرح ، غير أن مديرى المسارح رفضوا رواياته الهزلية التى قدمها ، حتى كاد ييأس من

النجاح فى هذا المجال ، واذا بهزلية تدعى « اللادى فردريك » يقبلها احد المسارح فتنجح نجاحا منقطع النظير . وتدور حوادثها حول شاب وقع فى غرام حسناء اكبر منه سنا . ثم تلتها هزليات أخرى ، فيها نقد للمجتمع وقد نجحت كلها كذلك

وعندما نشبت الحرب الاولى عام ١٩١٤ دخل الخدمة الطبية العسكرية فى فرنسا ثم نقل الى قلم المخابرات البريطانية فى انجلترا وقد تأثرت صحته من العمل المتواصل فسافر الى جزر الجنوب مارا بأمريكا ، ووجد فى تلك الجزر الهدوء الذى ينشده ، وعاد بملاحظات وذكريات اعانته فى تاليف روايته « القمر وستة بنسات » ولكنه اوفد قبل أن يتم هذه الرواية فى بعثة دبلوماسية الى روسيا . وهناك عاوده المرض ، ورجع الى انجلترا مريضا بذات الرئة ، فدخل مصحا أمضى فيه عدة اشهر حتى عوفى من دائه . وسرعان ماحفزه حب السفر الى أن يبحر الى الصين ، وقد عاد منها برواية جديدة وهكذا ظل على سفر دائم ، يستمد منه موضوعات لقصص ينشرها بالمجلات الانجليزية والامريكية أو يؤلف منها كتبا وروايات

وقبل نشوب الحرب العظمى الاخيرة كان قد استقر فى « فيللا » سماها « بورسك » عند رأس فرات بالقرب من مدينة نيس . ولكن الالمان احتلوا فرنسا فى عام ١٩٤٠ فاضطر الى الفرار فى باخرة فحم حتى وصل الى انجلترا ، ثم لجأ الى أمريكا حيث استقر فى مزرعة بولاية كارولينا الجنوبية . وهناك عاد الى تاليف الكتب والروايات والقصص . وقد اقبل الامريكيون على رواياته يخرجون منها أفلاما ، فلقيت هذه الافلام نجاحا عظيما حيثما عرضت فى أمريكا وغيرها من البلدان



شخصيات الرواية

• **اشندن** Ashenden : اسم الجاسوس الانجليزى الروائى الطبيب . وهو اسم مستعار للمؤلف نفسه

• **سومرفيل** Somerville : اسم مستعار له فى احدى مغامراته بمدينة لوسرن فى سويسرا

• **كايبور** Caypor : صحفى انجليزى خان بلاده وعمل جاسوسا للألمان فى سويسرا ، وزوجته المانية . .

• **جوستاف** Gustav : اسم سرى لموزع تجارى سويسرى يعمل فى خدمة المخابرات الانجليزية ، واسمه الحقيقى جراباو Grabow

• **شندرالال** Chandra Lal : من احرار الهند العاملين على القضاء على الاستعمار الانجليزى فى الهند

• **جوليا لازارى** Guilia Lazarri : عشيقة شاندرالال الايطالية التى تحترف الرقص الاسبانى الشعبى تحت اسم مالاجوينا Malaguena

• **الجنرال كارمونا** Carmona : جنرال مكسيكى مطرود من بلاده عقب انقلاب فى الحكم ، ويعمل فى خدمة المخابرات الانجليزية ولا يتورع عن ارتكاب اية جريمة

• **اندريادى** Andriadi : جاسوس لحساب المانيا ، يونانى الجنسية قادم من بلاد اليونان الى ايطاليا فى مهمة سرية

• **الكولونيل** Colonel R. : مدير المخابرات العسكرية الانجليزية، والرئيس المباشر لاشندن والعقل الموجه لمؤامراته ومغامراته

الفصل الأول

الإسم السرى

فى أوائل سبتمبر عاد اشندن الكاتب المحترف الى الجزيرة البريطانية بعد مصاعب جمة بسبب نشوب الحرب . وبعد ذلك بأيام جمعته الظروف فى احدى السهرات بكولونيل كهل لم يعلق اسمه بذهنه . ودار بينهما حديث مما يسمر به الناس عادة فى مثل تلك الحفلة . وقبيل انصرافه قال له الضابط :

ـ الديك مانع من زيارتى فى مكتبى لنتحدث بعض الوقت ؟

ـ ليس عندى مانع بالتأكيد . متى تحب أن أزورك ؟

ـ غدا فى الحادية عشرة . هل يوافقك هذا الموعد ؟

ولما أبدى له موافقته كتب له عنوانه بالقلم الرصاص . ولما هم أشندن فى اليوم التالى بالذهاب فى الموعد المحدد وجد نفسه يدخل شارعا عتيقا كانت مبانيه بالطوب الاحمر تدل على ايغالها فى القدم ، كما تدل على أن هذا الشارع كان من الشوارع الهامة فى الماضى . وكان البيت المقصود يحمل لافتة للبيع ونوافذه مغلقة كلها مما يوحى بأنه غير مأهول

ورن أشندن جرس الباب ففتح له على الفور ضابط لم يوجه له اى سؤال بل أدخله على الفور الى حجرة مستطيلة فى مؤخرة البيت كانت يوما ما حجرة مائدة . وزخارفها لا تتفق اطلاقا مع أثاث المكتب القديم الموضوع فيها . ونهض الكولونيل لاستقبال أشندن وشد على يده . وعرف أشندن فيما بعد أن هذا الكولونيل يطلق عليه فى المخابرات البريطانية اسم سرى مكون من حرف واحد لا اكثر هو : « ر » . وهو رجل طوله أكثر من المتوسط بقليل ، له وجه أصفر به خطوط غائرة ، وشعره خفيف أشهب اللون ، وشاربه أشهب

بفرشاة الاسنان . وكان الذى لفت ذهن أشندن لاول وهلة التقارب الشديد بين مقلتيه الزرقاوين . وكانت عيناه قاسيتين يقظتين تضفيان عليه سمة الدهاء بحيث تشعر من النظرة الاولى انك ازاء رجل لا يحب ولا يوثق به ، مع أن لهجته ودية وسلوكه لطيف

والقى الكولونيل على أشندن أسئلة كثيرة ، ثم قال له من غير تمهيد أن فيه صفات كثيرة ترشحه لخدمة المخابرات السرية ، فهو يتقن عدة لغات أوروبية . وحرفة التأليف تصلح غطاء جيدا لتنقلاته واقامته بعض الوقت فى الدول المحايدة

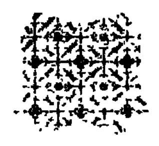
ولم يستغرق الاثنان وقتا طويلا فى الوصول الى اتفاق . وعندما نهض أشندن للانصراف كان قد سجل بعناية التعليمات الدقيقة الصادرة اليه . واولها أن يسافر الى جنيف فى اليوم التالى

وكانت آخر كلمات الكولونيل وهو يصافحه مودعا :

ــ من واجبى ان ابصرك بما ينتظرك فى هذه الخدمة . ان احسنت فلن تتلقى الشكر . وان انزلقت فى مكروه فلن تجد عونا منا . فهل هذا مما تطيب به نفسك ؟

ــ تماما

ــ اذن اتمنى لك التوفيق



الفصل الثانى

زيارة

كان اشندن فى طريقه عائدا الى جنيف والليلة عاصفة والرياح تهب باردة من الجبال ، ولكن الباخرة الصغيرة ظلت تشق طريقها باصرار بين امواج البحيرة المثلوجة ، والمطر ينهمر وابلا على سطحها فى عنف كأنه امرأة تتسـاغبه لا تريد أن تترك بابا للازعـاج الا طرقته

وكان اشندن قد رحل الى فرنسا كى يكتب تقريرا ويرسله من هناك . وقبل ذلك بيومين حضر أحد عملائه الهنود الى مسكنه فى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر على غير موعد سـابق ، وكانت التعليمات الصادرة الى العملاء ألا يقابلوه فى الفندق الا للضرورة القصوى . وقال الهندى أن بنغاليا فى خدمة الالمان وصل اخيرا من برلين ومعه حقيبة سوداء بها تقارير ووثائق تهم الحكومة البريطانية . وفى ذلك الوقت كانت سياسة الاعداء العمل على اثارة المتاعب فى الهند كى تضطر الحكومة الانجليزية الى ابقاء جيوشها هناك مشغولة بقمع الاضطراب ، هذا أن لم تضطر لارسال مزيد من جيوشـها الموجودة فى فرنسا . وقد اتضح انه يمكن حمل السلطات فى برن على اعتقال ذلك البنغالى بتهمة ما ، ولكن الحقيبة السوداء لم يعثر لهـا على اثر

وكان الهندى عميل أشندن رجلا شديد البراعة واسع الحيـلة كثير الاختلاط بمواطنيه المعادين لبريطانيا فعرف أن البنغالى كان قد احتاط للأمر فترك الحقيبة فى مخزن الامانات بمحطة زيورخ . فلما قبض عليه والقى فى السجن انتظارا للمحاكمة لم يعد فى وسعه ان يسلم البطاقة لاحد أعوانه كى يسحب الحقيبة من المخزن . وكان

من المهم جدا لدى المخابرات الالمانية أن تومن محتويات الحقيبة على وجه السرعة . ولما كان من المستحيل عليهم الحصول على الحقيبة بالوسائل الرسمية العادية من غير البطاقة ، فقد استقر رأيهم على مهاجمة المحطة فى هذه الليلة بالذات لسرقة الحقيبة . وهى خطة جريئة متهورة ، ولكن اشندن وجد فيها مايثير اهتمامه ، بعد أن تسرب الملل الى نفسه من رتابة العمل . وكان يعرف أن رئيس المخابرات الالمانية فى برن رجل مندفع لا يعرف التورع

وكان الموعد المحدد لذلك الاقتحام هو الساعة الثانية من صباح الغد . ولم يكن فى استطاعة اشندن أن يثق بالبرق أو التليفون فى الاتصال بالضابط البريطانى فى برن . والعميل الهندى لم يكن فى وسعه أن يذهب لمقابلة ذلك الضابط فى برن ، لانه حمل راسه على كفيه حينما حضر الى جنيف لمقابلة اشندن . ولو شوهد خارجا من حجرته بالفندق لاعتبره مواطنوه خائنا . وصار من المرجح أن توجد جثته طافية بعد ايام قلائل على وجه البحيرة وقد غار الخنجر فى ظهره حتى المقبض . فلم يبق أمام اشندن اذن الا ان يسافر بنفسه الى برن

وكان هناك قطار مسافر الى برن بعد دقائق قليلة فاسرع اشندن . وبعد اربع ساعات كان يطرق باب قيادة المخابرات هناك . وكان اسمه غير معروف لاحد هناك سوى شخص واحد طلب اشندن مقابلته ولم يكن قد التقى به من قبل ، فجاءه رجل طويل القامة يبدو عليه التعب فقاده الى مكتب منعزل . وافضى اليه اشندن بمهمته ، وعندئذ نظر الرجل الطويل الى ساعته ، وقال :

ــ أن الوقت لا يتسع كى نعمل شيئا بانفسنا . لاننا لن نصل الى زيورخ فى الوقت المناسب . فمن الخير أن نوعز الى السلطات السويسرية بالعمل حتى اذا اقتحم أصحابنا المحطة وجدوها فى حراسة شديدة . ويستحسن أن تعود انت الى جنيف

وصافح اشندن وودعه الى الباب . وأدرك اشندن انه لن يعرف بقية القصة لانه مجرد حلقة صغيرة فى سلسلة ضخمة من العملاء السريين

وكان يشعر بالبرد شعورا شديدا رغم معطفه المبطن بالفراء ، وقد

وطن النفس على اخذ حمام ساخن بمجرد وصوله الى الفندق ، ثم يتناول عشاء دسما بجوار المدفاة فى حجرة النوم وهو فى بيجامته ، كى يسرى الدفء الى أوصاله المقرورة ، ثم يخلو بعدئذ الى غليونه وبين يديه كتاب . وكانت هذه الامنية كافية لتخفيف فظاعة الجو على سطح الباخرة الصغيرة . وكان جواز سفره لا يحمل اية اشارة الى قدومه من فرنسا . وهذا الجواز خال من الاختام الفرنسية مما قد يعرضه لمتاعب ، ولاسيما أن البوليس السرى السويسرى كان شديد اليقظة لوضع حد للمؤامرات والدسائس التى يقوم بهـــا الفريقان المتحاربان فوق الاراضي السويسرية المحايدة

وكان هناك كالعادة ضابطان من ضباط الشرطـة على الرصيف لمراقبة النازلين من الباخرة . وتنفس اشندن الصعداء عنـــدما تخطاهما من غير أن يحدث شيء . وسرعان ما اتجه تحت جنح الظلام نحو فندقه . وكانت المتاجر قد اغلقت ابوابها وخلت الشوارع الا من عدد يسير جدا من المارة . وكان فندقه فى مواجهة البحيرة ، فما أن فتح له البواب حتى أسرع يخترق البهـــو المتلألىء بالانوار ليركب المصعد . واذا بعامل الاستقبال يخبره أن فى حجرته سيدين ينتظران عودته . ولم يكن لاشندن أصدقاء فى جنيف فقال بدهشة :

ـ من تراهما يكونان ؟

وابتسم الرجل الذى كانت هبات أشندن السخية تعمره ، وقال :

ـ لا اخفى عليك انهما من رجال الشرطة

ـ ماذا يريدان ؟

ـ لم يصرحا لى بشيء عن غرضهما . لقد سالا عنك فقط فقلت انك خرجت لنزهة . فأصرا على انتظار عودتك الى حجرتك

ـ ومنذ متى ؟

ـ منذ ساعة .

وغاص قلب أشندن ولكنه لم يدع ملامحه تنبىء عن قلقه . وغادر المصعد متعللا للعامل بانه يريد الصعود على قدميه ليقاوم البرد . والحق انه صعد الطبقات الثلاث ببطء ليمنح نفسه مهلة للتفكير

وكان على شبه يقين من سبب حضور ضابطى الشرطة . ولمن ظروف التعب بعد الرحلة المرهقة والبرد الشديد . فليست لديه

الهمة كي يجابه موقفا عصيبا . وليس لديه الاحتمال لقضاء مثل هذه الليلة الفظيعة في زنزانة الحبس

وخطر بباله ان ينزل ثانية ويغادر الفندق ويترك حقائبه ويستقل اول قطار الى خارج الحدود السويسرية . ولكن قدميه لم تستجيبا لهذا الخاطر واستأنفتا الصعود . مع أنه كان يعلم جيداً ان ثبوت تهمة النشاط المنافي للحياد معناه السجن سنتين . ولكن هذه ضريبة العمل في المخابرات كما أن التعرض للقتـــل ضريبة الجالسين على العرش

ولما وقف اخيرا أمام باب حجرته المقفل بدات عزيمته تتجمع وذهنه يتوقد . وكانت الابتسامة الطبيعية على شفتيه عندما فتح البـاب وواجه زائريه بتحية تفيض بشاشة ومودة

وكانت جميع الانوار في الحجرة مضاءة . والنار متوهجة في المدفأة . ودخان السجائر يملأ الجو . وكان اشندن محبا للاناقة والترتيب . فاستطاع أن يفطن بنظرة واحدة الى أن جميع محتويات الحجــرة فتشت تفتيشا دقيقا . ولم يزعجه ذلك لانه لم يكن يحتفظ في حجرته باية وثيقة يمكن أن توقعه في مازق . وأما شفرته فكان يحفظها عن ظهر قلب . ولكن عملية التفتيش نفسها أكدت ارتياب الســلطات السويسرية في أمره

ــ اية خدمة أستطيع تقديمها لكما ايها السيدان ؟ الستما تجدان الجو حارا هنا فيحسن أن تخلعا معطفيكما وقبعتيكما ؟

ــ لن نبقى الا برهة وجيزة

وخلع أشندن وشاحه ومعطفه الثقيل ثم قدم اليهما ســيجارا فاخرا ، أخذاه من غير كلمة شكر . ولكن فخامة السيجار أوحت اليهما بشيء من الاحتشام والاحترام فخلعـــا قبعتيهما ، ثم قال احدهما :

ــ نحن من الشرطة . ونريد الاطلاع على جواز سفرك

وابرز أشندن جواز سفر جديد ليس فيه اية معلومات عن تحركاته سوى أنه جاء من لندن منذ ثلاثة اشهر ولم يبرح سويسرا حتى ذلك الوقت . وتناول أحدهما الجواز ونظر فيه بعناية ثم أعطاه لزميله وهو يقول :

ــ اظنه على ما يرام

وكان اشندن فى تلك الاثناء واقفا أمام النار يتدفأ وبين شفتيه سيجارة فلم يعلق بشيء وأن كان يرقب الرجلين بحذر خفى يموهه بطلاقة محياه . ثم رد اليه احدهما الجواز ، وهو يقول :

ــ لقد كلفنا مدير الشرطة بالاستعلام منك عن بضعة أمور . اذ يبدو أن الكثيرين من النزلاء قدموا شكاوى من الضجة التى يحدثها المنصرفون من الكازينو فى ساعة متأخرة من الليل فاحببنا ان نعرف هل أنت شخصيا ممن أزعجتهم الضجة ؟ فلو كانت الضجة شديدة لسمعتها حتما لان طريقهم من تحت نافذتك

وذهل اشندن لاهتمام مدير البوليس براحته فى منامه الى هذه الدرجة . ولكنه رجح أن الرجل تعلل بهذا العذر لانه لم يجد ضده دليلا يبرر مواجهته بالاشتباه . فمن المقطوع به أن هناك من وشى باشندن ، ولكنه قال بصورة طبيعية للغاية :

ــ الحقيقة اننى انام نوما عميقا . ولم يزعجنى فى اقامتى شيء . ولو فرضنا اننى استيقظت مرة من نومى على الضجة فلن يخطر ببالى ان اتقدم بشكوى . فمن حق الناس أن يمرحوا فى هذا الوقت العصيب الذى تجتازه البشرية . هذا شعورى أيها السيدان

ــ لقد لاحظت فى جواز سفرك انّ مهنتك التاليف ياسيدى . وهى مهنة جليلة تجلب لصاحبها المجد ، فماذا تفعل هنا فى جنيف ؟

فشعر اشندن ان وراء السؤال ما وراءه ، وقال ببراءة تامة :

ــ اؤلف مسرحية

واشار بيده الى الاوراق المتناثرة على المنضدة ، وكان واثقا انهما اطلعا عليها قبل حضوره . فقال احدهما :

ــ ولماذا تؤلف مسرحيتك فى جنيف بالذات لا فى وطنك .

فازدادت ابتسامة اشندن اشراقا . وكان هذا السؤال من الاسئلة التى أعد الكتابة عنها منذ قدومه الى سويسرا ، فقال :

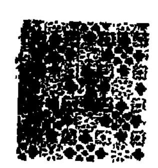
ــ هل نسيت الحرب ؟ ان وطنى فى حالة قلق بسبب الحرب فمن المستحيل أن أجد هناك الهدوء اللازم لكتابة المسرحية

ــ وهل هى ملهاة ام مأساة ؟

ــ ملهاة من النوع الخفيف . والفنان يحتاج الى الهدوء والسلام

كى ينتج . وكيف يتوفر ذلك فى بلد محــارب ؟ ومن حسن حظ سويسرا أنها محايدة . ولذا خيل الى أننى ساجد فى جنيف الهدوء الذى أنشده

وظهر الاقتناع على الشرطيين فنهضا وصافحهما أشندن . ثم اغلق خلفهما الباب وزفر زفرة ارتياح عميقة دخل بعدها الحمام ، وهــو يتذكر مشاحنة حدثت منذ بضعة أيام بينه وبين ســـاق سويسرى من اصل المانى طلب زيادة أتعابه فرفض أشندن . وانصرف الساقى برنارد حانقا . ورجح أشـــندن أن برنارد هو الذى وشى به الى السلطات السويسرية . وحمد ربه لان الازمة مرت هــذه المرة بسلام



الفصل الثالث

الآنسة كنج

استلقى أشندن مسترخيا فى حوض الاستحمام ، مسلما بدنه للماء الساخن ، وقد سره انه سيتمكن فى الغالب من اتمام مسرحيته فى هدوء وسلام . فالشرطة قد صرفوا أنظارهم عن تعقبه فى الوقت الحاضر وان كان من المحتمل انهم بدءوا يرقبون حركاته منذ الان بشيء من العناية . ولكن من غير المتوقع ان يتخذوا ضده خطوة أخرى قبل أن يكون قد اتم على الاقل مسودة الفصل الثالث . فمن الواجب اذن ان يلزم جانب الحيطة لان زميله فى مدينة لوزان حكم عليه منذ أسبوعين بالحبس . ولكن ذلك ينبغى الا يثقل على اعصابه ، فسلفه فى مدينة جنيف أصيب بانهيار عصبى على أثر الضغط الناتج من مراقبة الشرطة المستمرة له ، ولذلك اضطر المسئولون ان يسحبوه وأرسلوا اشندن ليحل محله

واهم شيء فى عمل أشندن أن يذهب مرتين كل أسبوع الى السوق ليتلقى التعليمات التى تحضرها له فلاحة عجوز من اقليم السافوا الفرنسى تأتى الى جنيف لتبيع الزبد والبيض مع رفيقاتها . والتفتيش على الحدود ليس دقيقا لان أولئك الفلاحات يصلن الى نقطة التفتيش قبيل الفجر ، والموظفون نيام ، فيتخلصون من ثرثرتهن وضجتهن بأسرع وقت . ولا يخطر بالبال أن هذه العجوز السمينة المتوردة الوجه التى يفتر فمها عن ابتسامة ساذجة تخبيء بين ثدييها الضخمين قصاصة صغيرة من الورق تكفى لالقاء القبض عليها وعلى كاتب انجليزى يزحف الى أواسط العمر . وكانت هذه المراة تقدم على هذه المجازفة ثمنا لابعاد ابنها عن خنادق الميدان

وكان أشندن يذهب الى السوق بعد التاسعة عندما تكون ربات

البيوت قد فرغن من شراء حوائجهن ، ويقف أمام السلة ليشترى نصف رطل من الزبد ، ويعطيها ورقة مالية فترد اليه بقية نقوده ، ومعها القصاصة الصغيرة ، فيدس قبضته فى جيبه . ويعود مسرعا الى الفندق فيطالعها خلسة ويحفظها عن ظهر قلب ثم يحرقها ...

وتنهد اشندن لان حرارة الماء بدات تقل ، ولم يكن فى استطاعته ان يصل الى الصنبور المرتفع بيده ولا بأصابع قدمه ، وهو راقد . ولو نهض ليضيف ماء ساخنا الى الحوض ، سيكون قد تخلى عن الاسترخاء ، وعندئذ يستوى عنده العودة الى الماء الساخن او الخروج من الحمام

وظل اشندن مترددا برهة ، وهو يسلى نفسه بتذكر الفكاهات التى يريد ايرادها فى مسرحيته . واذا به يسمع طرقا خفيفا على باب حجرته فهتف :

ـ من الطارق ؟

ـ رسالة

ـ ادخل وانتظرنى دقيقة

وخرج اشندن من حوض الاستحمام وأحاط نفسه بمنشفة ثم دخل حجرته فوجد وصيفا من وصفاء الفندق ينتظره برسالة من احدى النزيلات تدعوه للعب البريدج بعد العشاء فى جناحها الخاص . والرسالة بتوقيع البارونة فون هيجنز . وكان اشندن يتوق الى تناول عشائه فى حجرته وهو بملابس النوم ثم يطالع كتابا بجوار المدفاة . فهم أن يرفض الدعوة ، ثم خطر له أن الرفض فى مثل ظروفه غير مستحب ، بل يستحسن ان يظهر ساعة العشاء فى حجرة المائدة الكبرى . فلابد ان أخبار زيارة رجال الشرطة له قد ترددت على الالسنة . فمن الواجب أن يظهر ان هذه الزيارة لم تترك لديه اثرا سيئا . واحجامه عن الظهور فى قاعة المائدة ورفضه دعوة البارونة سيفسر تفسيرا سيئا

وخطر بباله ايضا أنه ربما كان المبلغ ضده من نزلاء الفندق . وكان اسم البارونة فون هيجنز من بين الاسماء التى حامت حولها ظنونه . فمن الطريف ان يلعب معها البريدج . ولذا قال للرسول انه يسره تلبية الدعوة ، ثم شرع يرتدى ملابس السهرة

كانت البارونة فون هيجنز امراة نمساوية ، تتـــكلم الانجليزية والفرنسية بطلاقة تامة . وكان جدها لابيها سائســـا انجليزيا فى يوركشير . صحبه معه الى النمسا احد الامــراء . وكان السائس الانجليزى جميل الصورة ففتن احدى الفرندوقات واستغل تلك الحظوة بحيث اصبح فى نهاية حياته بارونا ووزيرا مفوضا للنمسا لدى بلاط احدى الامارات الايطالية

والبارونة هى حفيدته الوحيدة ، تزوجت زواجا غير موفق ، ثم انفصلت عن زوجها واستردت اسم عائلتها . ولكنها لم تكن تذكر عن جدها سوى انه كان سفيرا . ولا تشير طبعا الى انه بدا حياته سائسا . وقد علم اشندن هذه الحقيقة من فينا عندما توثقت بينهما المعرفة ولاح له أن معرفة المزيد عن حياتها أمر يقتضيه الحرص فى مهنته

وعلم أيضا من فينا أن ايرادها الخاص لا يسمح لها بالحياة على هذا المستوى الباذخ فى جنيف . ولما كانت تتحلى بمزايا كثيرة تزكيها لهنة الجاسوسية ، فمن قبيل الاحتياط يجب اعتبارها جاسوسة . وعلى هذا الاساس صار اشندن يراها زميلة فى المهنة ، مع اختلاف فى المعسكر

وعندما نزل اشندن الى حجرة الطعام وجدها غاصة بالناس ، فجلس الى مائدته المعتادة ، ثم طلب ــ على حساب الحكومة البريطانية ــ زجاجة شمبانيا . والقت اليه البارونة بابتسامة خلابة ، وهى امراة تجاوزت الاربعين ، بيد أنها انيقة رشيقة ذات جمال خلاب للغاية : شقراء ذهبية الشعر ذات ملامح دقيقة ، ومقلتين زرقاوين ، وانف مستقيم ، وبشرة يختلط فيها الورد باللبن ، ترتدى ثوب سهرة يبدى من جيدها الاتلع اكثر مما يخفى . ومع فخامة ثيابها لم تكن تتحلى بمجوهرات ، مما يدل على أن الدولة التى تستخدمها فتحت لهـا حسابا ضخما لدى دور الازياء . ولم تفتح لها حسابا لدى تجــار المجوهرات

وفى اثناء انتظار اشندن لاطباق الطعام جعل يجيل بصره فى القاعة . ومعظم الحاضرين اشخاصهم مالوفة لديه ، فمدينة جنيف فى ذلك الحين كانت مهد الدسائس الدولية . وكان هذا الفندق مركـزها

الرئيسى . كنت تجد فيه فرنسيين وايطـــاليين وروسـيين واتراك ورومانيين ويونانيين ومصريين . نفر منهم هربوا من أوطانهم بسـبب الحرب ، ولكن نفرا آخر منهم جواسيس بغير شك . فكان هناك مثلا بلغارى يعمل تحت رئاسـة اشندن ، ولكنه على سبيل الاحتياط لم يكلمه فى جنيف مرة واحدة . وهاهو ذا يتناول العشاء مع اثنين من مواطنيه ، وهناك مومس المانية صـغيرة السن ذات عينين زرقاوين ووجه مثل وجه الدمية ، وهى دائمة التنقل على طول شـــاطىء البحيرة بين جنيف وبرن . ومهنتها تتيح لها الحصول على نتف من المعلومات لاشك ان رئاسة المخابرات الالمانية تعيرها اهمية كبرى . وهذه المومس تنتمى طبعا الى طبقة تختلف كثيرا عن طبقة البارونة ومجال نشاطها لا تستطيع أن تنشط فيه البارونة

ولاحظ اشندن ايضا وجود الكونت فون هولزمندن ، وهو رئيس الجاسوسية الالمانية فى مدينة فيفى . وينتمى الى اسرة تصاهر العائلة القيصرية . وكان يوما ما يعيش فى لندن وهناك عرفه اشندن . ولما نشبت الحرب صار كل منهما يتجاهل الآخر . ولم يسبق للكونت ان وطئت قدمه هذا الفندق ، كما أنه ليس من المعقول أن حضوره الليلة كان اعتباطا

وتساءل أشندن هل لوجود الكونت الليلة علاقة بظهور الامير « على » فى قاعة المائدة على غير المألوف . والامير « على » مصرى من اقرب أقارب الخديو الذى عزله الانجليز عن عرش مصر لميـــوله التركية . وقبل اسبوع حضر الخـديو تحت ســـتار من السرية الشـديدة ، فامضى ثلاثة أيام فى الفندق مع الامير على فى جناحه الخاص للتشاور فى اثارة المتاعب لبريطانيا على ضـفاف النيل . والامير على يقيم فى الفندق بصفة دائمة مع ابنته ومدير اعماله مصطفى باشا . ومن عادة الامير أن يتناول طعامه فى جناحه الخاص بمفرده . اما كريمتاه فمن النوع المتحرر جدا ، وتتعشيان مع السكرتير ومربيتهما الانجليزية العجوز الآنسة كنج فى قاعة المائدة ، ثم تخرجان للسهر الى الصباح فى المراقص الليلية . ولكن الامير الليلة خالف عادته وجلس يتعشى فى القاعة الكبرى

والآنسة كنج انجليزية كانت مربية للامير على من قبل . وقد

حاول أشندن فى مبدأ اقامته أن يحييها باعتبارها مواطنة ، ويعقد صلة ودية معها تنفعه فى عمله ، ولكنها أظهرت برودا أوقفه عند حده ، حتى أنها قالت له بالفرنسية ـ لانهـا ترفض التحدث بالانجليزية ! .

ـ لا أريد أن اتعرف الى غرباء !

وأصبحت هذه العجوز توليه ظهرها كلما التقت به وجها لوجه . وكان من المفروغ منه انها تلبس شعرا مستعارا بنى اللون . وفى أحيان كثيرة كانت لا تحسن تبيينه فوق وجهها المغطى بالتجاعيد . بيد أنها كانت تصر على وضع بقعتين حمراوين فوق وجنتيها ، وصبغ شفتيها بصباغ أحمر صارخ . اما ملابسها فذات الوان فاقعة ، وقبعتها مما ترتديه الصبيات الصغيرات . ولكن حذاءها له دائما كعب مرتفع جدا . فلا عجب أن كان الناس يلتفتون فى الشارع ليحملقوا فيهـا بأفواه مفتوحة

وعلم أشندن ان الآنسة كنج لم تزر انجلترا منذ التحقت بخدمة والدة الامير على . فملكه الفضول لمعرفة ماعسى ان تكون هاتان العينان قد ابصرتاه فى اقبية الحريم فى غضون نصف قرن ، فمما لاشك فيه أنها أدركت عهد اسماعيل ، وما كان فى ايامه من دولة طائلة لعانيات الحريم !

وعلم أشندن أيضا أنه لم تعد لها فى وطنها انجلترا أسرة أو أصدقاء، وأن عواطفها معادية لانجلترا . وأن خشونتها معه ترجع ولاشك الى أوامر مشددة من مخدومها أن تكون منه بالذات على حذر . فأخذ يتساءل ما الذى يدور فى رأسها وهى جالسة تنظـر بعينيها الى كريمتى الامير على المتحررتين وهما تسهران كل ليلة وحدهمـا فى الملاهى السيئة السمعة حتى الصباح

▱

وبعد قليل انتهت البارونة فون هيجنز من تناول عشائها فجمعت منديلها وحقيبة يدها وتهادت خارجة والخدم ينحنون لهـا على الجانبين . حتى اذا بلغت مائدة أشندن تمهلت وقالت له بانجليزيتها المتقنة التى تكاد تخلو تماما من اللكنة الالمانية :

ـ أنى لسعيدة انك ستتمكن الليلة من لعب البريدج . فهل لك

ان تأتى الى حجرة جارسى لتتناول قهوتك ؟

ـ ما ابدع هذا الثوب !

ـ انه فظيع ! فلا أدرى الآن ماذا افعل وقد امتنع على الذهاب الى باريس لشراء ثيابى . ولا أدرى لماذا جر هؤلاء البروسيون وطنى المسكين الى هذه الحرب الفظيعة ...

ورشقته بابتسامة خلابة ثم استأنفت تهاديها . ولم يفرغ اشندن من تناول عشائه الا بعد مدة ، وعندما نهض للانصراف كانت قاعة المائدة قد امست خالية تقريبا . وصعد الى الطابق الثانى وطرق باب البارونة ، ففتحت له على الفور واستقبلته مبسوطة اليدين فى مودة سابغة وجذبته الى الداخل . فاذا بالشخصين اللذين سيلعبان معهما هذه اللعبة الرباعية موجودان ، وهما الامير على وسكرتيره مصطفى باشا . ودهش أشندن دهشة شديدة . ثم قامت البارونة بالتقديم فى فرنسيتها الطلقة . وأبدى مصطفى باشا حفاوة وذلاقة لسان . اما الامير فكان خجولا قليل الكلام

ومصطفى باشا رجل ضخم الجسم بدين فى نحو الخامسة والاربعين، له عينان واسعتان كثيرتا الحركة وشارب كبير اسود . يحلى رباط عنقه بماسة كبيرة ، ويزين راسه بطربوش احمر

وأخذت البارونة تطرى ادب أشندن ومؤلفاته وقدرته فى لعب البريدج . ولكن أشندن لم يغتر بهذا الاطراء ، لانه كان يعلم حدود تلك القدرة الحقيقية . انه لاعب جيد بين لاعبى الدرجة الثانية . وقد لعب امام أحسن لاعبى العالم وادرك أنه ليس من مستواهم . وظل حائرا فى السبب الذى دعا البارونة للجمع بينه وبين هذين المصريين المنفيين فى هذه الليلة . وغلب على ظنه أن البارونة هى التى حرضت عليه رجال الشرطة السويسرية . ولذلك وجهت اليه الدعوة بعد أن فشلت خطتها فى القبض عليه لتنفى عن ذهنه الشك فيها

وكان معظم الحديث أثناء اللعب عن جمال باريس وذكريات الامير فيها وعن مسكنه الفخم ، وما يضمه فى العاصمة الفرنسية من افخم الرياش واثمن التحف الفنية . واظهر أشندن عطفه واعجابه بالحركة القومية فى مصر وانه يرى « فينا » اجمل عواصم اوروبا . فكان يرد على المجاملات بمجاملات مثلها ، وهو حريص على الا يظفروا منه

بمعلومات تتجاوز مايمكنهم معرفته مما ينشر فى الصحف السويسرية.
وخيل اليه أن هناك عملية جس نبض لمعرفة مدى استعداده لبيع مواهبه لمعسكر آخر . وكان جس النبض بطريقة لبقة للغاية

وما أن دقت الساعة منتصف الليل حتى نهض الامير واقفا ، وقال :

ــ لقد تأخر الوقت . ولاشك أن مستر أشندن لديه عمل كثير فى الغد فلا يجمل بنا أن نبقيه ساهرا

وفطن اشندن الى أن هذه اشارة له بالانصراف . فنهض مستاذنا وترك الثلاثة يتداولون فى الموقف وهو واثق أنهم لم يظفروا منه بطائل وما أن دخل باب حجرته حتى شعر بتعب شديد ووجد مشقة فى فتح عينيه وهو يخلع ثيابه . وما أن رقد فى فراشه حتى استغرق فى النوم

وخيل اليه أنه لم ينم أكثر من خمس دقائق عندما أيقظه طرق متوال على الباب . واصغى برهة ثم هتف :

ــ من هناك ؟

ــ الوصيفة . افتح . عندى ما اقوله لك

فنهض اشندن وهو يلوك اللعنات وأوقد المصباح ثم سوى شعره بأصابعه وفتح الباب . فرأى الوصيفة السويسرية وقد بدا من ملابسها انها ارتدتها فى عجلة شديدة ، ووجهها مكفهر

ــ السيدة الانجليزية العجوز مربية الاميرتين المصريتين فى النزع الاخير ، وهى تلح فى حضورك

ــ أنا ؟ مستحيل . انا لا أعرفها . وهى كانت على ما يرام هذا المساء

ــ ولكنها تلح فى طلبك . هذا ماقاله الطبيب . فنرجو أن تسرع بالحضور لانها فى الرمق الاخير

ــ لابد أن هناك خطأ . فهى لا يمكن أن تطلبنى

ــ لقد ذكرت اسمك ورقم حجرتك . فأرجوك ان تسرع

فهز اشندن كتفيه ولبس خفا ومعطفا ، ودس فى جيبه مسدسا صغيرا لا لانه يجد لاستعماله نفعا ، فهو يكره الاسلحة النارية ، بل لما يبعثه حمله فى نفسه من طمأنينة فى مثل هذا الظرف الغامض

وحجرة الآنسة كنج ترتفع فوق حجرة أشندن بطابقين . وفى الطريق دهش اشندن عندما عرف أن الساعة بلغت الثالثة . وعندما طرقت الوصيفة الباب فتحه مسيو بريديه نائب مدير الفندق . وكان يلبس فى رجله خفا وفوق بيجامته سترة بذلة السهرة السوداء . فكان منظره مضحكا ، ولا سيما أن شعره المصفف فى العادة بعناية كان غاية فى الفوضى والتشعث . وأخذ الرجل يفرط فى الاعتذار الى أشندن لازعاجه قائلا :

ــ الف معذرة . ولكنها ظلت تلح فى طلبك . وقال الدكتور «أربو» انه لابد من ايقاظك

ــ لا بأس

ودخل أشندن فاذا حجرة خلفية صغيرة جميع مصابيحها مضاءة، ونوافذها مقفلة ، وجميع ستائرها مسدلة . فكانت الحرارة شديدة . والطبيب السويسرى الملتحى الاشيب واقف بجوار الفراش . ورغم الارهاق الشديد كان يبذل عنايته كلها . وقام بريديه بالتعريف :

ــ هذا هو مستر أشندن الذى طلبته الآنسة كنج . الدكتور أربو من كلية الطب بجامعة جنيف

ومن غير أن ينطق الطبيب بكلمة واحدة اشار الى الفراش . وكانت نظرة واحدة كافية لاصابة أشندن بصدمة . فالشعر المستعار موضوع بجوار الفراش على كرسى . وراسها مغطى بطاقية بيضاء من القطن وقميص نومها يرجع طرازه الى القرن الماضى . ووجهها مغطى بالكريم الذى استعملته لازالة المساحيق عن وجهها . وقد بدت ضئيلة الحجم جدا وهى راقدة فى فراشها كأنها طفلة . وزاد مظهر تقدمها فى السن . فلا بد انها تجاوزت الثمانين حتى صارت اقرب الى الدمية منها الى البشر . دمية ساحرة عجوز تفنن فى صنعها فنان ساخر . وكان الناظر اليها خليقا ان يظنها ميتة لولا هاتان العينان السوداوان ونظرتهما الثابتة

وخيل الى اشندن أن تعبير نظرتها تغير حين رأته ، فقال بمرح مصطنع :

ــ يؤسفنى جدا يا آنسة كنج ان أراك بهذه الحالة

فقال الطبيب :

ـ ان الآنسة كنج لا تستطيع الكلام . لانها اصيبت بنوبة اخرى عندما كانت الوصيفة توقظك . وقد حقنتها وربما استعادت القدرة على استخدام لسانها بعد برهة . فعندها ماتقوله لك

ـ سأنتظر بكل ارتياح

وخيل اليه أنه لمح فى هاتين العينين السوداوين نظرة سكر على هذه الكلمة . وساد بعدها الصمت بين الاربعة المحيطين بفراش العجوز المحتضرة

واخيرا قطع بريديه الصمت قائلا :

ـ اذا لم يكن هناك ما أستطيع أن أصنعه هنا فمن المستحسن ان أعود الى فراشي . اليس كذلك ؟

فقال له الطبيب :

ـ اذهب أنت ياصديقى . فليس بيدك ان تصنع شيئا

فالتفت مسيو بريديه الى أشندن قائلا :

ـ هل تسمح لى بكلمة على انفراد ؟

ـ بالتأكيد

ولمح الطبيب نظرة فزع مفاجئة فى عينى الآنسة كنج فقال برفق :

ـ لاتفزعى . السيد أشندن ليس منصرفا . سيبقى ما شئت أنت أن يبقى

وانتحى مساعد المدير العام للفندق بأشندن ناحية خارج الباب ، وقال :

ـ هل أستطيع أن أعتمد ياسيد أشندن على كتمانك ؟ من المزعج جدا أن يموت أحد فى فندق . فالنزلاء الآخرون يستاءون من ذلك ويجب أن نبذل كل ما فى وسعنا حتى لايعلموا شيئا . وساعمل على نقل الجثة فى أول فرصة . وساكون شاكرا لك غاية الشكر اذا لم تذكر أمام أحد أنه حدثت فى الفندق حالة وفاة

ـ تستطيع أن تثق بذلك كل الثقة

ـ لسوء الحظ أن المدير العام متغيب هذه الليلة . وأخشى أنه سيسخط جدا عندما يعلم . وطبعا كان فى نيتى أن استدعى نقالة تحملها الى احدى المستشفيات ، ولكن الطبيب أكد لى أنها ستموت لو حركناها . ورفض رفضا باتا أن يسمح لى بنقلها . فليس ذنبى أن

تموت في الفندق !

ـ قلما يراعي الموت مقتضى الحال

ـ انها امرأة عجوز وكان يجب أن تموت منذ سنوات طويلة • أو على الاقل كان يجب على هذا الامير المصرى أن يعيدها الى وطنها فما حاجته الى مربية طاعنة فى السن بهذه الصورة ؟

ـ وأين الامير الآن ؟ لقد ظلت فى خدمته سنوات طويلة • ألم يكن ينبغى أن توقظوه ؟

ـ انه ليس فى الفندق . خرج مع سـكرتيره ولعله يلعب الآن البكاراه . وعلى كل حال لا يسعنى الا أن أرسل من يبحثون عنه فى ارجاء جنيف

ـ والاميرتان ؟

ـ لم تعودا من السهرة بعد • فهما مجنونتان بالرقص كل ليلة حتى الصباح • ولا أدرى فى أى ناد ليلى هما الآن • ولا أظنهما على كل حال ستشكرانى كثيرا اذا أنا ارسلت فى طلبهما الآن بسببها• وعند عودتهما سيخبرهما عامل الاستقبال بما حدث لمربيتهما . وهى على كل حال لاتريدهما ، لاننى عندما أيقظونى ودخلت عليها الحجرة سألتها هل تريد الامير أو الاميرتين فقالت بحدة لا ، لا !

ـ هل كانت تستطيع الكلام عندئذ ؟

ـ بصعوبة • ولكن الامر الذى أدهشنى أنها كانت تتكلم باللغـة الانجليزية • مع أنها لم تستخدم الا الفرنسية • وكانت تكره كل ما هو انجليزى

ـ ولماذا طلبت حضورى ؟

ـ هـذا ما لا أعرفه . قالت ان لديها ما يجب ان تقوله لك فى الحال • وكانت تعرف رقم حجرتك ، وعارضـت فى مبدأ الامر • فمن حقك أن تنام مستريحا فى حجرتك التى تدفع أجرتها • ولكن الطبيب ألح فى وجوب ايقاظك • وكانت هى أكثر الحاحا حتى انها عندما طلبت منها ان تنتظر الى الصباح انفجرت باكية

وحدج أشندن المسيو بريديه بنظرة فاحصـــة ، فاذا ذلك الرجل السويسرى لايجد فى الامر أى باعث على التأثر •••

ـ سأنتظر أنا الى أن ينجلى الموقف

ـ وانا سأذهب الى فراشي شاكرا لك تعاونك ووعدك بالكتمان

وعاد أشندن الى غرفة المحتضرة ، فحولت على الفور نظراتها اليه. شعر بتأثر شديد ، وأن من واجبه أن يقول لهـــا كلمة ملطفـــة ولكنه لم يدر ماذا يقول • وأخذ الطبيب يشرح له كيف أصيبت بذلك الفالج فجأة . وبعد قليل قال لاشندن :

ـ انها قد تبقى على هذا الوضع ساعات • وليس أمامي ما أصنعه لها فلا فائدة من بقائي وامامي غـدا يوم حافل بعيـادة المرضى ، ويمكنك ايقاظي بالتليفون اذا حدث اى تغيير فى حالتها

ثم ربت على خدها المتغضن كأنها طفلة ، وقال لها :

ـ اجتهدى أن تنامى • وسأعود لزيارتك فى الصباح

وبعد أن ودع أشندن الطبيب الى الباب قال للوصيفة :

ـ وانت ايضا عندك عمل مرهق غدا . ماذا يبقيك ؟ اذهبى الى فراشك وحاولى أن تنامى

ونهضت الوصيفة فانصرفت وبقى أشندن وحده بجـــوار فراش المحتضرة نى ظهر فى عينيها السوداوين مجهود يائس للكـــلام • ثم انهمرت الدموع من عينيها فأخرج أشندن منديله ، وجففهما ، وهو يقول لها :

ـ لاتزعجى نفسك • لاتبتئسى يا آنسة كنج • اصـــبرى قليلا وسوف تستطيعين قول كل ما تريدين

ولكن نظرة القلق لم تذهب من عينيها . وبدأت أعصابه تتمزق . فأطفأ المصابيح الا واحدا واشتدت رغبتــه فى تدخين ســيجارة . ولكنه وجد الموقف غير مناسب . وظل صامتا ينظر بين الحين والحين نحوها ليجد عينيها مثبتتين فى وجهه . وهو لايدرى لماذا بعثت اليه هو بالذات ؟ هــل احست بحنين مفاجىء ساعة الموت الى بلادها ؟

ان كان الامر كذلك فلماذا لم ترسل الا اليـــه وبين النزلاء انجليز كثيرون ؟ انها تعلم أنه جاسوس فلابد أن ما تريد أن تقوله له علاقة بهذه الصـــفة . انها معلومات يستطيع أن يستخدمها أو يجب أن يعرفها قبل فوات الاوان

وبعد ساعة بدأت تضطرب • ولمح حركة على شـــفتيها ، فأدنى أذنه من فمها • وازداد الرعب اليائس فى نظرتها • ولم تســـتطع

أن تقول له الا كلمة واحدة بصوت أجش وهى تتوثب فى جهد أخير للقيام • فحمل رأسها بين يديه تلبية لهذه الرغبة • هذه الكلمـــة الواحدة هى :

ـ انجلترا

ثم ثقل رأسها • ولما وسدها أدرك أنها فارقت الحياة



الفصل الرابع

المكسيكى الأجرد

قال الكولونيل لاشندن :

ـ هل تحب المكرونة ؟

فأجابه أشندن متعجبا :

ـ ماذا تعنى بالمكرونة ؟ انك حين تسألنى هذا السؤال كأنك تسألنى هل تحب الشعر . فأنا أحب كيتس وأحب واردزورث وأحب فيرلين وأحب جيته . وأنت حين تسأل عن المكرونة هل تعنى منها الاسبجتى أم التليانلى أم الريجاتونى أم الفرمتشلى أم التوفالى ؟

ـ أعنى المكرونة بسائر أنواعها

ـ أنا رجل يحب جميع الاشياء البسيطة فى الحياة . أحب البيض المسلوق ، والمحار ، والبطارخ ، وسمك السلمون المشوى ، والحمل المشوى ، وصدر الاوز المشوى ، والبودنج . ولكن أحب الاشياء البسيطة جميعا الى ، بل الشىء الوحيد الذى أستطيع أن آكله كل يوم لا بغير تقزز فحسب بل بشغف وتلهف هو المكرونة !

فقال الكولونيل عندئذ :

ـ يسرنى أن أسمع منك هذا الكلام لأنى أريدك أن تذهب فى مهمة الى ايطاليا

وكان أشندن قد حضر من جنيف لمقابلة الكولونيل فى مدينة ليون . فوصل قطاره مبكرا قبل وصول الكولونيل فقضى فترة بعد الظهر يتجول فى أرجاء تلك المدينة المزدحمة الثقيلة الظل . وهما الآن جالسان فى مطعم كان أشندن هو الذى قاد الكولونيل اليه عند وصوله ، لانه مشهور بتقديم أفضل طعام فى تلك المنطقة

من فرنسا . وكان المطعم مزدحما ، لأن أهل ليون يحبون الطعام الجيد ، فلا تستطيع أن تضمن انصات الآذان لمايخرج من شفتيك. ولهذا اكتفى الاثنان بالخوض فى موضوعات سطحية . وفى ختام الطعام قال الكولونيل :

ـ الك فى كأس اخرى من البراندى ؟

ـ كلا وشكرا

فتناول الكولونيل الزجاجة وصب لنفسه كأسا ولأشندن مثلها ، وهو يقول :

ـ يجب أن ينتهز الانسان كل فرصة ممكنة للتحلل من قيود الحرب

ووجد اشندن أن الاعتراض سيكون سخيف الوقع ، فتناول كاسه واخذ يرشف منها فى بطء ، وطلب الكولونيل قائمة الحساب . ومع انه شخصية هامة ، وله سلطة اعزاز أو اذلال عدد ضخم من اتباعه ، وآراؤه لها وزنها عند من بيدهم مصائر الامبراطوريات ، الا انه كان يشعر دائما بالحرج الواضح جدا كلما اقتضت الحال أن يعطى هبة للخدم . فهو يخشى أن يبدو مغفلا ، اذا اعطاهم اكثر مما ينبغى بكثير . ويخشى ان يثير ازدراءهم اذا اعطى أقل مما يجب . فعندما جاء الساقى بقائمة الحساب اعطى الكولونيل أشندن بضع مئات من الفرنكات قائلا :

ـ ادفع أنت الحساب . فانا لا افقه الارقام الفرنسية

ثم جاء الخادم بالقبعتين والمعطفين . وسأل اشندن :

ـ اتحب ان تعود الآن الى الفندق ؟

ـ من المستحسن ذلك

وكان الوقت فى أوائل العام ولكن الجو كان دافئا فمشيا وكل منهما يحمل معطفه فوق ذراعه . وكان أشندن يعلم أن الكولونيل يفضل أن تكون له حجرة استقبال خاصة ملحقة بحجرته فراعى ذلك عندما حجز له مكانا فى الفندق . والى تلك الحجرة توجه الاثنان بمجرد دخولهما الفندق المشيد على الطراز القديم . ولذا كانت حجراته واسعة والاثاث ثقيلا مصنوعا من خشب الموجنى . وكسوة المقاعد الضخمة من القطيفة الخضراء ، والجدران مزينة

بمناظر من مواقع نابليون . ويتدلى من السقف شمعدان ضخم كان يستخدم للانارة بالغاز ثم ركبت عليه مصابيح كهربائية

واحتل اشندن مقعدين جلس على أحدهما وبسط قدميه فوق الآخر . فلما رآه الكولونيل على تلك الصورة قال :

ــ هذه فكرة لاباس بها

ثم جلب مقعدا آخر وضع فوقه قدميه وتنهد بارتياح وسأل :

ــ أى حجرة هذه التى تجاورنا من هذا الجانب ؟

ــ حجرة نومك

ــ ومن الجانب الآخر ؟

ــ بهو للمآدب

فنهض الكولونيـــل وجاب أرجاء الحجرة ونظر وراء الســـــتائر الثقيلة ثم عاد الى مقعده ، ورفع قدميه فوق المقعد الآخر ، وقال :

ــ من الافضل دائما ان يتخذ الانسان الحيطة

ثم نظر الى اشـــندن بامعـــان وقد لاحت على شفتيه الرفيعتين ابتسامة يسيرة ، بيد أن العينين الشاحبتين المتقاربتين احتفظتا بما فيهما من برودة فولاذية . ولا شك أن تحديق الكولونيل كان خليقا أن يضايق أشـــندن لولا أنه تعوده ، فأدرك أن الكولونيل يـــفكر فى كيفية مفاتحته فى الموضـــوع الذى يشـــغل ذهنه . ودام الصمت دقيقتين أو ثلاثا . ثم قال أخيرا :

ــ انى أنتظر قدوم شخص سيحضر لمقـــابلتى الليـــلة . وقطاره يصل فى الساعة العاشرة

ونظر فى ساعة معصمه ، ثم قال :

ــ وهو معروف باسم المكسـيكى الأمرد

ــ لماذا ؟

ــ لأنه أمرد ولأنه مكسيكى

ــ هذا تفسير مقنع للغاية

ــ وسيخبرك بنفسه عن كل ما يتصل به . لأنه ثرثار . وقـــد التقيت به وهـــو فى حالة افلاس تام . ويظهر أنه كان مشـــتركا فى احدى الثورات بالمكسيك واضطر للفرار وليس عليه سوى ثوبه ، فر بجلده لأن ثوبه كان شيئا لا يســـتحق الذكر حين قابلته . واذا

اردت أن تظفر برضاه فيجب أن تناديه دائما بلقب جنرال . وهو يزعم أنه كان جنرالا فى جيش هورتا ، وأن الامور لو سارت على ما يرام لأصبح وزيرا للحربية هناك ، ولا أدرى ماذا من عظائم الامور، وقد ألفيته نافعا جدا لنا . ولا أكره فيه شيئا سوى استخدامه للعطور

ــ وما علاقتى أنا بموضوعه ؟

ــ أنه مسافر الى ايطاليا . فقد كلفته هناك بمهمة شائكة . وأريد منك أن تكون بقربه . لأنى لست حريصا على ائتمانه على مبلغ كبير من المال فهو مقامر وشديد الولع بالفتيات . وأظنك جئت من جنيف بجواز سفر باسم اشندن ؟

ــ أجل

ــ لقد احضرت لك معى جواز سفر دبلوماسيا باسم سومرفيل وعليه تأشيرات دخول فرنسا وايطاليا . وأظن من الافضل أن تسافرا معا . وهو رفيق مسل ، وأعتقد انكما يجب أن تتعارفا

ــ وما هى المهمة بالضبط ؟

ــ لم يستقر رأيى بعد على المدى الذى يستحسن أن تعرفه عن هذه المهمة

ولم يجب أشندن . وتبادلا نظرات جامدة خالية من الارتباط ، كأنهما غريبان يجلسان معا فى عربة قطار وكل منهما يسائل نفسه عن الآخر ، أى صنف من الرجال عساه يكون ؟

وبعد برهة قال الكولونيل :

ــ لو كنت فى موضعك لتركت الجنرال يتحدث طول الوقت عن نفسه كما يشاء . فلن أخبره عنك أكثر من المعلومات الضرورية جدا . وسوف لا يتطفل عليك باسئلة لأنه على نوع معين من التهذيب على طريقته الخاصة

ــ وما هو اسمه الحقيقى ؟

ــ أنا دائما اناديه مانويل . ولا اظنه يستسيغ ذلك كثيرا . فاسمه مانويل كارمونا

ــ يخيل الى مما تحاشيت ذكره عنه أنه وغد عريق

فابتسم الكولونيل بعينيه الشاحبتى الزرقة وقال :

ـ لا أظنني اذهب معك الى هذا الحد . والواقع انه لم يتعلم فى مدارس محترمة ومبادؤه فى الرياضة وفى التعامل ليست مثل مبادئى ومبادئك . فلا أستطيع أن اترك وأنا مطمئن علبة سجائر من الذهب وهو موجود بالقرب منها . ولكنه اذا خسر امامك نقودا فى البوكر ، وكان قد سرق علبة سجائرك الذهبية فلن يتردد فى رهنها كى يؤدى لك دين الشرف . ولن يفلت اقل فرصة لاغواء زوجتك ، ولكنه اذا وجدك فى ضيق اقتسم معك اللقمة التى فى فمه . وتجرى دموعه مدرارا على خديه اذا سمع اغنية مثل « اننا نضمك يا أم النور » . ولكنك اذا اهنت كرامته فلن يتردد فى قتلك غير آسف . ويظهر انهم فى المكسيك يعتبرون مرور شخص بينك وبين شرابك اهانة كبيرة . فقد اخبرنى مرة أن هولنديا لا يعرف ذلك التقليد مر بينه وبين البار فاخرج مسدسه فى الحال وقتله بالرصاص !

ـ ولم يعاقب ؟

ـ كلا . اذ يظهر أنه ينتمى الى اسرة من أكبر الاسر هناك . فسويت المسالة ونشر فى الصحف ان الهولندى انتحر . وهذا هو الواقع تقريبا لان المكسيكى الامرد لا يقيم وزنا كبيرا للحياة البشرية

فاجفل اشندن وادرك ان رئيسه لم يقل له ذلك الكلام اعتباطا وسكت الكولونيل برهة ، ثم قال :

ـ وما أكثر الهراء الذى قيل عن قيمةالحياة البشرية فى الواقع. فالقائد فى المعركة لا يعتبر الرجال أكثر من أرقام . وليكونن أبله اذا سمح لنفسه بالنظر اليهم نظرة عاطفية باعتبارهم بشرا

ـ ولكن البشر ليسوا مجرد ارقام !

ـ ليس هذا موضوعنا . المهم أننا تلقينا معلومات تفيد أن رجلا يسمى قسطنطين اندريادى قادما من استنبول ومعه وثائق معينة نريد الحصول عليها . وهو يونانى من أعوان أنور باشا . وانور باشا فيه ثقة كبيرة . وقد حمله رسائل شفوية على درجة كبيرة من السرية والخطورة بحيث لا يمكن تسجيلها علىالورق . والرجل أبحر من ميناء بيريه فى اليونان فوق سفينة اسمها عتاقة وسينزل فى برنديزى ليتجه الى روما ، وسيسلم الوثائق فى السفارة الالمانية ،

وبلغ السفير رسائله السفوية

ــ فهمت

وقد كانت ايطاليا فى ذلك الوقت لم ترل على الحياد . والجبهة المعاديه تبذل كل جهدها كى تبقيها على الحياد . اما الحلفاء فكانوا يبذلون كل مافى وسعهم كى ننضم اليهم

ــ ونحن لا نريد ان يحدث اى اضطراب بيننا وبين السلطات الايطالية لان ذلك قد تكون له نتائج خطيرة جدا . ولكننا يجب أن نمنع أندريادى من الوصول الى روما

ــ بأى ثمن ؟

فافترت شفتا الكولونيل عن ابتسامة ساخرة ، وقال :

ــ المال ليس عقبة على كل حال فى سبيلنا

ــ ماذا تقترح أن نفعل ؟

ــ لا اظنك بحاجة الى شغل ذهنك بهذا السؤال

ــ ولكن لى مخيلة خصبة

ــ اريد منك أن تذهب الى نابلى مع المكسيكى الامرد . وهو شديد اللهفة على العودة الى كوبا . فأصحابه فيما يظهر ينظمون هناك حركة عسكرية وهو يريد ان يكون أقرب ما يمكن من المكسيكلينزل ارضها فى اللحظة المناسبة ، وهو بحاجة الى المال . وقد احضرت مبلغا كبيرا من الدولارات الامريكية معى ، ساسلمه لك الليلة لتحتفظ به فى جيبك . وهى مجموعة من ذات الالف دولار تسلمها للمكسيكى الأمرد فى مقابل الوثائق التى يحملها اندريادى

ــ وهل يدرى ذلك المكسيكى ما هو مطلوب منه بالضبط ؟

ــ بالضبط

وفى هذه اللحظة سمع طرق على الباب تم فتح ووقف امامهما المكسيكي الأمرد :

ــ ها قد حضرت . طاب مساؤك يا كولونيل يسعدني ان اراك

فنهض الكولونيل وقال :

ــ هل كانت رحلتك لطيفة يا مانويل ؟ هذا هو مستر سومرفيل الذى سيصحبك فى السفر الى نابلى ... الجنرال كارمونا.

وشد على يد اشندن بقوة حتى كاد يصرخ :

ـ لك يدان من فولاذ يا جنرال

فنظر المكسيكى الى يديه ، ثم قال :

ـ لقد طليت اظافرى اليوم ولكن الطلاء لا يعجبنى

وكانت الاظافر مقصوصة جيدا ومطلية باللون الاحمر وتلمع كالمرايا

ومع أن الجو لم يكن باردا فقد كان الجنرال يرتدى معطفا من الفراء الاستراخان الفاخر . وكلما تحرك حركة يسيرة هبت موجة من العطر فملأت انفك . وقال الكولونيل له :

ـ اخلع معطفك يا جنرال واشعل سيجارا

وكان المكسيكى الأمرد رجلا طويل القامة أميل للنحول ، الا انك تحس بما له من قوة بدنية خارقة . وبدلته الانيقة زرقاء اللون يتدلى من صدرها منديل حريرى أنيق ، وفى معصمه سوار ذهبى . وملامحه أكبر من المعتاد وعيناه عسليتان لامعتان . ولكنه أمرد تماما . وجلده الاصفر ناعم كبشرة المرأة . وليست له حواجب ولا رموش . وفوق رأسه شعر مستعار طويل له خصلات على طريقة الفنانين . فكان منظره المتناقض مفزعا مضحكا سخيفا . ولكنه يستلفت نظرك ويستهويك بغرابة منظره واناقته

وجلس الجنرال بعد أن رفع سرواله حتى لا يتكسر ولا ينبعج عند الركبتين . ثم قال له الكولونيل فى مزاح ساخر :

ـ خبرني يا مانويل : هل حطمت كثيرا من القلوب اليوم ؟

فالتفت الجنرال نحو أشندن وقال :

ـ أن صديقنا الفاضل الكولونيل يحسدنى على نجاحى المستمر مع الجنس اللطيف . وانا اقول له دائما انه يستطيع أن يحظى بمثل نجاحى لو انه استمع لنصائحى . فالثقة هى الشىء الوحيد الذى تحتاج اليه مع النساء . ومادمت لا تخاف الصد فثق انك لن تجد الصد .

فقال الكولونيل :

ـ هراء يا مانويل . فلابد أن تكون للمرء أساليبه الخاصة مع الفتيات . فهناك شىء فى شخصك لا تستطعن مقاومته

فضحك المكسيكي الأمرد راضيا عن نفسه بغير مواربة . وهو

يتكلم الانجليزية باجادة تامة ، ولكن بلكنة أسبانية ، وقال :

ــ أما وقد سألتني يا كولونيل عن عدد القلوب التي حطمته اليوم فلا أبالي أن أخبرك انني تجاذبت حديثا طويلا في القطار مع امرأة ضئيلة الحجم ، كانت قادمة لزيارة حماتها في ليون ، ولم تكن صغيرة السن جدا ، وجسمها انحف مما يروق لي في النساء . ولكنها كانت مقبولة . وقد اعانت على ارجاء ساعتين من الزمن بأسلوب لطيف

فقال الكولونيل مغيرا موضوع الحديث :

ــ والآن لنشرع في العمل

ــ انا في خدمتك يا كولونيل . وهل المستر سومرفيل رجل عسكري ؟

ــ كلا . انه مؤلف

ــ الدنيا تتسع لشتى صنوف الخلق . وانا سعيد بمعرفتك يا مستر سومرفيل واستطيع ان اقص عليك حكايات كثيرة تثير اهتمامك . وانا واثق اننا سنتآلف . فلك ظل خفيف . وانا شديد الحساسية لخفة الظل . والحق اقول لك انني عبارة عن حزمة من الاعصاب . فاذا جمعتني الظروف بشخص منفر ثقيل الظل انفلت زمام اعصابي !

ــ آمل ان نحظى برحلة لطيفة

وعندئذ التفت المكسيكي الى الكولونيل وقال :

ــ متى يصل صاحبنا الى برنديزي ؟

ــ موعد ابحاره من بيريه على السفينة عتاقة في اليوم الرابع عشر من الشهر . ويستحسن ان نكون في برنديزي لانتظارها

ــ انا متفق معك في هذا

وقام الكولونيل فجلس على حرف المنضدة ويداه في جيبيه . فبدا في سترته العسكرية الشعثة العتيقة على نقيض صاحبنا المكسيكي في اناقته المفرطة . وبدأ يلقي تعليماته :

ــ مستر سومرفيل لا يعرف شيئا تقريبا عن المهمة التي عهدنا بها اليك . ولا احب ان تخبره بأي شيء . وافضل أن تسترشد بارائك الخاصة وفراستك . ولديه تعليمات أن يسلمك الاموال

التى تحتاج اليها فى عملك . ولكن العمل نفسه من شأنك وحدك . واذا احتجت عند الضرورة القصوى لاستشارته ، فلا بأس

ــ قلما اسأل احدا النصح . ولا آخذ أبدا بنصح أحد

ــ واذا اضطربت الامور فأنا واثق انك ستبقى مستر سومرفيل بعيدا عن الموضوع كلية . فيجب بأى شكل الا تزج به فى مأزق

فقال المكسيكى الأمرد باباء وشمم :

ــ انا رجل شريف ياكولونيل . وخير لى ان يمزقونى اربا من أن اشى باصدقائى

ــ وهذا ما قلته لمستر سومرفيل عنك . وقد اصدرت اليه التعليمات ايضا فى حالة نجاحك فى مهمتك نجاحا كاملا أن يسلمك المبلغ المتفق عليه فى مقابل الاوراق التى حدثتك عنها . اما الوسيلة التى ستحصل بها على تلك الاوراق فليست من شأنه

ــ هذا امر مفروغ منه . ولكن هناك موضوعا واحدا أحب أن اجلوه تماما . فانا حريص ان يفهم مستر سومرفيل اننى لم اقبل هذه المهمة التى عهدتم بها الى من أجل المال

فقال الكولونيل بجد تام :

ــ هو يفهم هذا تمام الفهم

ــ انا مع الحلفاء روحا وجسما . لانى لا أستطيع أن اغتفر للالمان خرقهم لحياد البلجيك . واذا قبلت المال الذى عرضتموه على فذلك لاننى وطنى مخلص قبل كل شىء . هل أستطيع ان أثق فى كتمان مستر سومرفيل ؟

فأومأ الكولونيل براسه وعندئذ التفت المكسيكى الى اشندن :

ــ هناك حملة تجهز لتحرير وطنى المنكود من أيدى الطغاة الذين يستغلونه ويخربونه . وكل بنس أتقاضاه سينفق فى شراء السلاح الذخيرة . اما انا شخصيا فلا حاجة بى الى المال . فانا جندى واستطيع أن اعيش على لقمة جافة وحفنة من الزيتون . وليست لى فى الحياة الا ثلاثة مشاغل تليق بالسيد المهذب : الحرب ولعب الورق والنساء . ولا يتكلف الانسان شيئا كى يحمل بندقيته على كتفه ويلوذ بالجبال . فالحرب عندنا حرب عصابات حقيقية لا مثل حربكم بالفرق والمدافع . واما النساء فيحببنى لشخصى بغير نظر

الى المال . اما لعب الورق فانا اربح فيه في معظم الاحيان

وشعر اشندن باستلطاف شديد لهذا المخلوق المتعجرف المزخرف المعطر الذي يتشدق بالتعسف . اجل هو مضحك في سخافه تفكيره ولكنه لا يوحي اليك انه رجل يستهان به . فنقته بنفسه لا تخلو من مهابه وفخامة

ـ واين حقيبتك يا مانويل ؟

ـ تركتها في المحطة

ـ مستر سومرفيل يحمل جواز سفر دبلوماسيا . ففي استطاعته ان يضم حقيبتك الى حقيبته عند الحدود حتى لا تخضع للتفتيش

ـ ليس في حقيبتي الا اشياء قليلة جدا ، عدد من البدل وملابس داخليه وقمصان . ولكن قد يكون من المستحسن ان يتفضل مستر سومرفيل بالاهتمام بحقيبتي . فقد اشتريت اثنتي عشرة بيجامة حريرية من باريس وأخشى أن يتقاضوا عليها رسوما

ونظر الكولونيل الى اشندن ، وسأله قائلا :

ـ وماذا عنك انت ؟

ـ عندي حقيبة واحدة في حجرتي

ـ يحسن أن نرسلها الى المحطة لان قطاركما يقوم في الواحدة وعشر دقائق بعد منتصف الليل

وكانت هذه أول مرة يسمع فيها اشندن انه سيسافر هذه الليلة . ولكنه لم يزد على أن قال :

ـ وهو كذلك

ونهض الكولونيل واقفا وهو يقول :

ـ سآوي الى فراشي . ولا أدري ماذا تريدان أن تصنعا في المدة الباقية

فقال المكسيكي الامرد :

ـ سأتمشى في ليون . فانا احب الناس . اقرضني مائة فرنك يا كولونيل من فضلك فليست معي « فكة »

فاخرج الكولونيل حافظة نقوده واعطى الجنرال المبلغ الذى طلبه ثم التفت الى اشندن ، وسأله :

ـ وانت ماذا ستصنع ؟ هل ستنتظر هنا ؟

ـ كلا . سأذهب الى المحطة واجلس فى الاستراحة للقراءة

ـ يستحسن أن تشربا كأسا من الويسكى بالصودا قبل انصرافكما ما رأيك فى ذلك يا مانويل ؟

ـ هـذا كرم منك يا كولونيـل . ولكنى لا اشرب الا الشمبانيا والبراندى

فأمر الكولونيل باحضار البراندى والصـودا . وصب كل من أشندن والكولونيل لنفسه كأسا . اما المكسيكى الامرد فملأ كوب ماء من ذلك البراندى الفاخر وشربه صرفا فى جرعتين ! ثم نهض واقفا ولبس معطفه المصنوع من الفراء . ثم تناول قبعته السوداء بيسراه ومد يمناه الى الكولونيل قائلا :

ـ أتمنى لك يا كولونيل ليلة طيبـة واحلاما سعيدة . ولست اتوقع ان نلتقى فى وقت قريب

ـ لا تفسد الامور يا مانويل . وان أفسدتها أطبق فمك

ـ قيل لى انه فى احدى كلياتكم التى يتدرب فيها أبناء الاشراف على أن يكونوا ضباطا فى البحرية توجد حكمة مكتوبة بحروف من ذهب وهى : « لا وجود لكلمة المستحيل فى البحرية البريطانية » . وأنا أيضا يا كولونيل لا اعرف معنى كلمة الفشل

ـ هذه كلمة لها مترادفات كثيرة على كل حال

فأعرض الجنرال عنه وقال لاشندن وهو منصرف :

ـ سألتقى بك فى المحطة يامستر سومرفيل

وبعد انصرافه نظر الكولونيل الى اشندن وهو يبتسم ابتسامته المعهودة التى تنبىء عن دهاء شديد وساله :

ـ والآن ما رايك فيه ؟

ـ انه مغرور كالطاووس . فهل حقا يلقى نجاحا مع النساء بمنظره هذا المرعب ؟ وما الذى يجعلك تثق به ؟

فضحك الكولونيل وجعل يفرك راحتى يديه فى حركة اغتسال وهمية :

ـ ظننتك ستحبه . فهو شخصية طريفة . أليس كذلك ؟ وأظن انه فى وسعنا أن نثق به . ساعطيك الآن تذكرتى السفر والنقود كى تنصرف لانى أريد أن أنام

وبعد عشر دقائق كان اشندن فى طريقه الى المحطة وحقيبته الوحيدة فوق كتف حمال . وكان باقيا أمامه أكثر من ساعتين ، فجلس فى مقعد وثير بحجرة الانتظار : والاضاءة بها جيدة وشرع بطالع رواية . ولما اقترب موعد وصول القطار من باريس كى يقلهما مباشرة الى روما ولم يظهر للمكسيكى الامرد اثر بدا أشندن يشعر بالقلق وخرج الى افريز المحطه لبحث عنه

واعطت الاشارة بقرب قدوم قطارروما السريع ولا أثر للمكسيكى الامرد ايضا . ووصل القطار الى المحطة ولم يصل المكسيكى فاستولى الفزع على أشندن . فأخذ يروح ويجيء وهو يتلفت كالمجنون على غير طائل

ولم تكن فى القطار عربات نوم . فاحتل مقعدين فى الدرجه الاولى ثم وقف فى النافذة يجيل نظره فى الناس ثم ينظر الى ساعة المحطه . ولما كان السفر من غير رفيقه لا فائدة منه فقد قرر أشندن أن يغادر القطار بحقيبته بمجرد صدور الاشارة للقطار بالتحرك

وبقيت ثلاث دقائق . ثم دقيقتان . ثم دقيقة ، واصبح افريز المحطة خاليا تقريبا . واذا به يرى المكسيكى الامرد قادما يتبعه حمالان معهما حقائبه . وفى صحبته رجل بدين . وهو يمشى متبخترا . ولمح اشندن فلوح له بيده ، ثم قال بصفاقه :

ــ اهذا أنت أيها العزيز ؟ لقد كنت اتساءل ماذا حدث لك ؟

ــ يا الهى ! أسرع يا رجل والا فاتك القطار !

ــ اطمئن . فأنا لا يفوتنى القطار أبدا . هل حصلت على مقعدين طيبين ؟ ان ناظر المحطة فى الراحة ، وهذا نائبه

ورفع الرجل البدين قبعته تحية لاشندن . ثم استطرد المكسيكى :

ــ ولكن هذه عربة عادية . وأخشى انى لا استطيع أن أسافر فيها . ولاشك انك تستطيع أن تدبر لى شيئا خيرا من هذا ايها العزيز

فأسرع نائب الناظر البدين بالانحناء ، قائلا :

ــ بالطبع ياسيدى الجنرال . سأدبر لك صالونا خاصا

وأخذهما الرجل الى صالون خاص يصلح مقعداه الكبيران سريرين . وأبدى المكسيكى ارتياحه وسمح للحمالين بترتيب حقائبه

ثم مد يده فصافح نائب الناظر ، وهو يقول له :

ــ لن انساك . وفى اول فرصة ارى فيهـا الوزير سأحدثه عن اهتمامك براحتى

ــ هذا كرم منك ياجنرال . وساكون مدينا لك بالشكر

ونفخ الرجل فى صفارته فقام القطار . وعندئذ انفجر أشندن :

ــ لماذا أخرت حتى الثانية الاخيرة ؟ ماذا يكون من أمرنا لو اننا لم ندرك هذا القطار ؟

ــ يا صاح ! لم يكن هنــاك اقل احتمال لعوات القطار . فعند وصولى من باريس هذا المساء قلت لناظر المحطـة اننى الجنرال كارمونا القائد العام للقوات المكسيكية المسلحة . واننى سأقضى هنا فى ليون بضع ساعات أعقــد فيها مؤتمرا مع ماريشال انجليزى . وطلبت منه أن يحجز لى القطار اذا تأخرت بضع دقائق . ولمحت الى أن حكومتى قد تفكر فى الانعام عليه بوسام . ولمـا كنت قـد مررت بليون من قبل وأعجبتني فتياتهـا وان كن لسن كفتيــات باريس ، فقد أحببت ان أستمتع بهن الى آخر دقيقة . والآن هل لك فى جرعة من البراندى قبل أن تنام ؟

ــ كلا واشكرك

ــ كما تحب . انا دائما أشرب كوبا من البراندى قبل النوم كى يهدىء اعصابى . فأنا حزمة من الاعصاب كما قلت لك

وفتح احدى الحقائب وأخرج منهـا زجاجة رفعها الى فمـه وشرب منها جرعة كبيرة ثم مسح شفتيه بظهر يده واشعل سيجارة وخلع حذاءه ورقد ، فأطفأ أشندن المصباح الكبير وترك نورا خافتا . وساد الصمت لحظة ، ثم قال المكسيكى الامرد :

ــ لم يستقر رأيى حتى الآن ايهما أمتع لى : أن انام وعلى فمى قبـلات امرأة حسناء أم سيجارة ؟ هـل ذهبت الى المكسيك ؟ سأحدثك عن المكسيك غدا . طابت ليلتك

وسرعان ما سمع أشندن تنفسه الثقيل المنسظم فأدرك انه نام . وبعد قليل أغفى اشندن . وبعد قليل استيقظ على وقوف القطار وقوفا مفاجئا ، وفى لمح البصر كان المكسيكى واقفا ومسدسه فى يده ، وهو يصيح :

ـ ما هذا ؟

ـ لا شيء . ربما كانت اشارة بأن الطريق مسفول

فهاوى المكسيكى على فراشه واضاء أشندن النور ، وقال :

ـ انك تستيقظ سرعة رغم نومك العميق

ـ لابد من هذا فى مهنتى

وكان على لسان أشندن ان يسأله عن هده المهنة أهى القتل أم التآمر أم قيادة الجيوش . ولكنه آثر السلامة . وفتح الجنرال حقيبته وأخرج الزجاجة . وبعد ان عزم على اشندن بجرعة ورفضها ، رفع الزجاجة الى فمه وصب منها فى حلقه كمية كبيرة من البراندى ثم اشعل سيجارة وهو يتنهد . ودهش أشندن لانه على الرغم من كميات الشراب الضخمه كان يبدو مفيقا تماما ، لا يبدو عليه أنه شرب طول الليل سوى عصير الليمون !

وبعد قيام القطار نام أشندن . وعندما استيقظ فى الصباح وتقلب فى فراشه وجد المكسيكى مستيقظا يدخن سيجارة . والارض تحت قدميه مفروشة بأعقاب السجائر وقد تلبد جو الغرفة بالدخان الازرق . وكان قد رجا أشندن أول الليل ألا يفتح النافذة بحجة أن هواء الليل خطر على الصحة . ونهض الرجل الى الحوض الملحق بالديوان فجعل يغسل أسنانه ويتغرغر بصوت عال . ثم أخرج من حقيبته زجاجة كولونيا صب منها قليلا فوق منشفة وجعل يدلك بها وجهه ويديه . ثم تناول مشطا ونسق به شعره المستعار فى عناية . ثم استخرج زجاجة من العطر ذات مضخة رشاشة وضمخ بها قميصه ومنديله ، ثم التفت الى أشندن :

ـ انا الآن على اتم استعداد لمجابهة العالم أجمع . استعمل لغسيل وجهك هذه الكولونيا فهى من أحسن منتجات باريس

ـ شكرا لك . لا احتاج لغسيل وجهى الا للماء والصابون

ـ ماء ؟ أنا لا استعمل الماء الا فى الاستحمام . فهو يفسد بشرة الوجه

وقرب الحدود تذكر اشندن المسدس الذى رآه عند وقوف القطار فى يد الجنرال فأخذه منه لانه بفضل جواز السفر الدبلوماسى معفى من التفتيش ، وعندئذ قال الجنرال :

ـ سأعطيك أيضا مديتي . فالمدية هي سلاحي المفضل . لانهـا سلاح أنيق . اما المسدس فيستطيع ان يستعمله أي ابله

وبحركات خاطفة خيل لاشندن انها حركة واحدة فك أزرار صداره وأخرج من حزامه مدية طويلة فظيعة الشـكل قدمها الى اشندن فخورا وهو يقول :

ـ انها من خير أنواع الصلب في العالم . شفرتها حادة كشفرة الموسى . وقوية كالخنجر . تستطيع بها أن تقطع ورقة سيجارة أو تسقط شجرة بلوط على السواء . وتبدو وهي مقفلة كمدية تلاميذ المدارس

ـ هل معك أسلحة اخرى ؟

ـ ليس سوى يدى . ولكن رجال الجمرك لن يرتابوا فيهما

وعندئذ تذكر أشندن قوة قبضته عندما صافحه أول مرة فسرت الرعدة في جسده . وكانتا يدين عريضتين طويلتين ناعمتين . لا اثر على ظهريهما ولا على المعصمين للشعر . أما الاظافر فمقصوصة قصا مدببا أنيقا ومطلية باللون اللامع ، ومع ذلك ففيها شيء مخيف



الفصل الخامس

المرأة السمراء

وعند وقوف القطار للتفتيش فى الحدود تجاهل كل من الجنرال كارمونا واشندن صاحبه . وبعد استئناف السير أعاد اشندن الى المكسيكى الامرد المسدس والمدية . فتنهد الجنرال قائلا :

ـ الآن اشعر بمزيد من الارتياح . وما رايك فى أن نلعب الورق لتمضية الوقت ؟

ـ لا مانع عندى

ففتح المكسيكى الامرد حقيبته مرة اخرى واستخرج من احد اركانها أوراق اللعب . وكان الورق الذى بيد أشندن جيدا ولكن الجنرال كان يكسب دائما . وفتح أشندن عينيه تماما لانه اعتقد ان خصمه من الجائز ان يعمد الى الغش ، ولكنه لم يكتشف شيئا يدل على ذلك . واستمرت خسارته دورة بعد دورة . وتكدست هده الخسائر الى أن قاربت الالف فرنك ، وهو مبلغ كان يعتبر حينئذ غير صغير . وكان الجنرال يدخن باستمرار سجائر لا تحصى يلفها بنفسه بحركة من اصبعه ، ولعقة من لسانه ، فى سرعة لا يتصورها العقل . واخيرا استلقى فى مقعده وسأله :

ـ بهذه المناسبة يا صديقى ، هل تدفع الحكومة البريطانية لك خسائرك فى لعب الورق حين تكون فى مهمة رسمية ؟

فقال أشندن باستغراب :

ـ كلا بالطبع

وعندئذ قال الجنرال بوقار :

ـ اذن فى هده الحالة أعتقد أنك خسرت ما فيه الكفاية . ولو أن خسائرك كانت تضاف الى حساب نفقاتك الرسمية لاقترحت عليك

ان تستمر فى اللعب الى أن نبلغ روما . ولكنك شـخص ظريف خفيف الظل ولا اريد ان أربح المزيد من نقودك الخاصة

ثم جمع أوراق اللعب ونحاها جانبا . واخرج اشندن حافظـة نقوده واستخرج منها بضعة أوراق مالية قدمهـا الى المكسيكى فأحصاها ثم وضعها بعنايته المعهودة فى حافظته . ومال الى الامام وربت على ركبة أشندن :

ــ انى أحبك فانت متواضع وغير متكلف وليست فيك عجرفة مواطنيك . وانا واثق انك ستتقبل نصيحتى لك بالروح التى أملتها على . لا تلعب الورق بعد اليوم مع أشخاص لا تعرفهم !

فشعر اشندن بالخزى ولعل ذلك ما ظهر على وجهه فقد تناول المكسيكى يده وهتف قائلا :

ــ هل جرحت شعورك ياعزيزى ؟ ماكنت لاقدم على ذلك لاى سبب من الاسباب . وانا أشهد الحق انك لا تلعب الورق أسـوأ من معظم اللاعبين . فليس الذنب فى الخسارة ذنبك . ولو أننا كنا سنبقى مدة أطول معا لعلمتك كيف تكسب فى اللعب . فالانسان انما يلعب الورق كى يكسب مالا ، فليس للخسارة معنى

فضحك اشندن ضحكة فجة ، وقال :

ــ كنت اظن انه فى الحب والحرب فقط تكون جميـع الوسائل جائزة !

فضحك الجنرال وقال :

ــ يسعدنى أن أراك تبتسم . فهكذا يجب أن يتقبل الانسـان الخسارة . وانى أرى الآن انك رجل دو عقل وذو فطنة ، وتحسن تقبل الامور بصدر رحب، ولذا ستبلغ فى الحياة مبلغـا حسنا . فهذه أدوات الوصول الصالح . وعندما اعود الى المكسيك ، واسترد ممتلكاتى وضياعى ، يجب أن تأتى للاقامة معى هناك . وسـوف أستضيفك فى مستوى ملكى ، فتركب أفضل جيادى وسنذهب الى مصارعة الثيران معا . واذا راقت فى عينيك فتيات فما عليك الا أن تقول كلمة واحدة حتى يكن طوع امرك !

وشرع الجنرال يروى لاشندن أمر الممتلكات الزراعية الشاسعة والحصون والمناجم التى يملكها فى المكسيك والتى صادرها اعداؤه .

وحدثه عن الابهة الاقطاعية التي كان يعيش فيها . ولم يكترث أشندن هل كان ما يقوله الجنرال صدقا أو كذبا . فحسبه ان عباراته الرنانة كانت متقلة بثمار الخيال ومعطره بأريج الاسطورة كانت صورة روماسية رائعة . لانه فى الواقع كان يصف حياة باذخة ، كأنما تنتمى الى عصر آخر من عصور البشرية . وكانت اشارات يديه من البلاغة فى التعبير بحيث تمد أمام عين العقل آفاقا بأسرها من المراعى الخضر والرياض اليانعة والجبال التى تغطى سفوحها الغابات وتغطى قممها الثلوج ، حتى اذا جنحت الشمس للمغيب امتلأت الربى بقطعان لا يحصيها العدد من الماشية عائدة الى المزاود . وفى الليالى المقمرة يتهادى النسيم معطرا بأريج الارض الخصبة ، وغناء المترنمين على نغمات الجيتار يسكر أعطاف الليل . .

ــ . . . كل هذا خسرته يا صاحبى . خسرت كل شيء وفررت بحياتى الى باريس . وهناك اضطررت أن اكسب قوتى باعطاء دروس فى اللغة الاسبانية للأمريكيين . او بمصاحبتهم لادلهم على أماكن المتعة واللهو فى ازقة باريس . واذا أنا الذى كنت أنفق الف « دوروس » على غدائى او عشائى ، قد بت أستجدى خبزى كأننى هندى أحمر اعمى . وأنا الذى كنت أجد لذتى فى تزيين معصم امراة حسناء بسوار من الماس الثمين ،اضطرتنى الحاجة الى قبول بذلة جديده من حبزبون أكبر من امى . ولكن صبرا ايها الصديق . فالعسر لا يدوم ، وقد حان الوقت الذى نضرب فيه ضربتنا

ثم تناول أوراق اللعب وأخذ يرتبها فى صفوف وهو يقول :

ــ فلنر ماذا تقول الاوراق . فالورق لا يكذب . آه لو أننى آمنت بالورق ايمانا كاملا كما ينبغى ! اذن لتجنبت الاقدام على العمل الوحيد فى حياتى الذى ثقلت وطأته على نفسى . ان ضميرى مستريح فقد فعلت ما كان اىُّ رجل حريا أن يفعله فى مثل ظروفى ؛ ولكنى آسف لان الضرورة الجأتنى الى اتيان عمل كنت أتمنى لو تجنبته ! لقد حذرنى الورق وانذرنى . انى لا أنكر انك فقد كان التحذير واضحا قاطعا . اظهر لى الورق الحب وامراة سمراء والخطر والخيانة والموت فى مجموعه واحدة . وكان ذلك واضحا تراه كما أرى الانف الذى فى وجهك . واى ابله كان حريا أن يدرك

معنى ذلك النذير . فما بالك وأنا الرجل الذى تعود طول حياته على استعمال الورق . فلا يكاد يوجد عمل أقدم عليه من غير أن أستشير الورق . فلا عذر لى ... انكم يا أبناء الشعوب الشمالية لا تعرفون ما هو المعنى الحقيقى للحب . لا تعرفـون كيف يذود النوم عن العين ، وكيف يذود الشهية للطعام حتى يذوى المرء كأنه صريع الحمى . لا تعرفون كيف يستولى الجنون على المحب حتى لا يبالى بشىء فى سبيل اطفاء رغبته الجامحة . ورجل مثلى حرى ان يقدم على اية حماقة أو اية جريمة اذا احب . أجل يا سنيور ! وخليق أيضا بدافع الحب أن يقدم على اعمال البطولة . فأينمـا يوجهه الحب يتجه علوا أو دنوا . يجتاز جبالا اعلى من أفرست ، ويعبر بحارا اعتى من الاطلنطى . يمسى الها أو شيطانا كيفما يشاء له الحب . وكانت النسـاء دائما آفتى !

ومرة اخرى اخذ المكسيكى الامرد ينظر فى الاوراق يبسـطها وينسقها . يتناول بعضا ويترك بعضا آخر

ــ لقد احبتنى اعداد لا تحصى من النساء . ولست اقول ذلك للتفاخر ، وليس عندى تفسير لذلك ، فهى مسألة واقع وكفى . اذهب الى مدينة المكسيك وسل الناس هناك عما يعرفون عن مانويل كارمونا وغزواته النسوية . سلهم كم امرأة استطاعت أن تصمد وتقاوم مانويل كارمونا !

وكان اشندن يرقبه وقد قطب حاجبيه قليلا . فهو لا يدرى هل المكسيكى الامرد مقتنع فعلا بسحره الذى لا يقاوم ، أم انه ماهر فى الكذب ...

ــ هناك شىء اسمه القدر ... وما من قوة على الارض تستطيع ان تمحوه أو تغيره . وانا رجل شجاع ، ومع ذلك تملؤنى الرهبة أمام الورق الذى يحمل لى نذير القدر ...

وكانت قد بقيت فى يده أربع ورقات مقلوبة جعـل يتحسس ظهورها ولا يجسر على كشفها وقد ارتسم على وجهه قلق لا يحاول أن يخفيه

وعاد يقول :

ــ هذه الاوراق الاربعة تحمل كلمة القدر . وانا أرتعد امامها

وفجأة نفر وجهه وسأل أشندن :

ـ ماذا كنت أقول لك ؟

ـ كنت تقول لى ان النساء يحدن سحرك لا يقاوم

ـ فعلا . ولكنى التقيت بامرأة واحدة قاومتني . رأيتها أول مرة في بيت من بيوت اللهو في مدينة المكسيك . كانت تهبط السلم وأنا اصعده . ولم تكن جميلة للغاية ، فقد حظيت بمئات من النساء اجمل منها . ولكن كان فيها شيء ما استلفت نظرى . فقلت للمرأة العجوز التي تدبر ذلك البيت أن تبعث بها الى . وهذه المرأة العجوز ستعرفها حتما عندما تذهب الى مدينة المكسيك . فهى أشهر مديرات بيوت اللهو ويسمونها هناك المركيزة . وقالت لى المركيزة أن هذه الفتاة ليست من المقيمات فى الدار ، ولكنها عضو منتسبة تأتى بين الحين والحين لمهمات خاصة ، وتنصرف الى بيتها . فطلبت منها أن تستدعيها فى المساء التالى ولا تسمح لها بالانصراف الى أن احضر . ولكنى فى الليلة التالية تأخرت ، وعندما وصلت أخبرتنى المركيزة ان الفتاة قالت لها انها لم تتعود الانتظار وانصرفت . وأنا رجل متسامح لا أبالى أن تتدلل المرأة فى بعض الاحيان ، فهذا جزء من سحرهن الخاص . ولذا ضحكت وأرسلت الى الفتاة ورقة من ذات المائة دوروس ، ووعدت أن أكون فى الموعد المحدد بالضبط فى اليوم التالى . ولكن عندما ذهبت مبكرا فى اليوم التالى ردت الى المركيزه المائة دوروس ، وقالت لى ان الفتاة لاتشعر نحوى بميل . فضحكت من وقاحتها ، وخلعت من اصبعى خاتما ماسيا ، وقلت للمركيزة انْ تعطيها الخاتم وترى هل سيتغير رأيها أم لا . وفى الصباح أتتنى المركيزة مقابل خاتمى الماسى بوردة حمراء . فلم ادر هل أضحك أم اغضب . وأنا لست معودا على الاستهانة بعواطفى . ولا أتردد فى انفاق المال : فما نفع المال ما لم نبعثره على النساء الحسان ؟ وقلت للمركيزة ان تذهب الى الفتاة وتخبرها أنى سأعطيها الف دوروس اذا تعشت معى تلك الليلة وسرعان ما عادت العجوز بجواب الفتاة أنها مستعدة للحضور على شرط أن اسمح لها بالعودة الى بيتها بعد انتهاء العشاء مباشرة وقبلت الشرط وأنا أهز كتفى لانى لم أعتقد أنها جادة . وظننت انها

تقول ذلك كي تزيد من رغبتي فيها . وحضرت الفتاة لتناول العشاء في داري . هل قلت لك أنها لم تكن جميلة ؟ لا تصدقني ! لقد كانت اجمل وافتن امراة قابلتها في حياتي . سحرتني . كانت فاتنة ظريفة حاضرة البديهة ، لها كل سحر الاندلسيات . كانت جديرة ان تعبد ، وسألتها لماذا استهانت بي على تلك الصورة ؟ فضحكت هازئة ولم تجب . وحاولت استمالتها وبذلت في ذلك غاية جهدي . ولكن ما أن انتهينا من العشاء حتى نهضت من مقعدها قائمة والقت على تحية المساء ايذانا بالانصراف . ففغرت فمي وسألتها الى أين هي ذاهبة ؟ فقالت انني وعدت بأن اتركها تنصرف بعد العشاء مباشرة . وقد وثقت بي لاني رجل شريف يجدر به أن يفي بوعده . وأخذت اقنعها واتوسل اليها ، ثم ثرت ولكن الفتاة لم تقبل أن تحلني من وعدي . وكل ماظفرت به هو ان تعدني بالحضور في الليلة التالية لتتعشى معي بنفس الشروط . وظللت سبعة أيام اعطيها كل يوم ألف دوروس كي تتعشى معي ، وفي كل ليلة كنت انتظرها وقلبي في حلقي . وأنا قلق متوجس كأنني عاشق مبتدىء ، أو مصارع ثيران يبرز أمام الجمهور للمرة الاولى . وفي كل ليلة كانت تلاعبني وتعبث بي ، وتبدى لي من فنونها ودلالها ما يشعل جنوني حتى بت احبها حبا لا حد له . لم أحبب مثله أحدا من قبل ولا من بعد . لم أعد أفكر في شيء سواها واهملت كل شيء وأنا الرجل الوطني الذي يحب بلاده . وكنا مجموعة صغيرة من الرجال استقر رأينا على الاطاحة بالطغيان الذي يسود وطننا . وكان يغيظنا ان جميع الوظائف الدسمه كانت لاصهار الطغاة وأقاربهم . وكنا نؤدي الضرائب مثل عامة الشعب ؛ ولا يقام لنسبنا العريق وزن ، وكنا نملك المال والرجال ، فأحكمنا تدبيرنا ، وتأهبنا لنضرب ضربتنا . وكان علي في تلك الفترة أن أعقد الاجتماعات وأدبر السلاح والذخيرة ، وأوصل الاوامر الى رجالنا السريين . ولكني كنت مجنونا بهذه المرأة فلم أستطع أن أحسن شيئا من تلك الامور . وكان من المفروض أن اسخط عليها لسخريتها مني . انا الذي لم اجرب في حياتي الحرمان من شيء اشتهيته . ولم أصدق أنها تتمنع على لتزيد رغبتي اشتعالا ؛ بل صدقت أنها كانت صادقة عندما

قالت لى أنها لن تمنحني نفسها الا اذا تأكدت من أنها تحبني وكانت تقول ان على أن أجعلها تحبني . كنت اظنها ملكا كريما ، وكنت مستعدا للانتظار والصبر ، وانا واثق أن شدة حبي ستنتهى باشعال الجذوة فى قلبها . واخيرا ... أخيرا جدا قالت لى انها احبتني . فكان انفعالى بذلك النبأ مروعا ، حتى خيل الى اننى ساخر صريعا ! كدت أجن من الفرح ! وكنت مستعدا ان انزل لها من كل ما أملكه فى الدنيا . كنت قمينا أن أنتزع النجوم من السماء لتزين بها شعرها . كنت أريد أن افعل شيئا كى أبرهن لها على تجاوز حبى جميع الحدود . كنت أريد ان افعل المستحيل الذى لايتصوره عقل ، كنت اريد أن أعطيها نفسى وروحى وشرفى وكل شيء . ولذلك وهى راقدة تلك الليلة بين ذراعى أخبرتها بمؤامرتنا واشخاصنا الحقيقية وموعد التنفيذ . وشعرت بجسمها يتصلب من التيقظ والانتباه وهى تسمع ما اقول . ثم شعرت بكفها باردة جافة ، فاستولى على الشك وتذكرت على الفور ما أنذرنى به الورق من اجتماع الحب وامرأة سمراء والخطر والخيانة والموت . والتصقت بصدرى ، وقالت لى أنها تفزع من سماع تلك الامور ، ثم سألتنى ان كان فلان وفلان من بين المتآمرين . واجبتها لانى اردت ان أتحقق من ظنى . وبدهاء لا حد له جعلت بين القبلات تستخلص منى التفاصيل . حتى اصبحت متأكدا كتأكدى من جلوسك أمامى أنها جاسوسة من رئيس الجمهورية . وانها مكلفة بالاستيلاء على لبى وهاهى ذى الان قد استخلصت منى جميع أسرارنا . لقد باتت حياتنا جميعا بين يديها وأيقنت انها ان غادرت هذه الغرفة فسوف نقتل جميعا قبل مضى أربع وعشرين ساعة . كنت احبها . ولن تستطيع الكلمات أن تصور لك عذاب الرغبة التى كان يحترق بها فؤادى . وان حبا كذلك الحب لا لذة فيه . انه الم . الم رائع يسمو فوق كل لذة . انه ذلك القلق القدسى الذى يتحدث عنه القديسون عندما تستولى عليهم النشوة السماوية وادركت انها ينبغى الا تترك هذه الغرفة حية ، وخشيت ان تباطأت فى التنفيذ أن تخوننى شجاعتى ... وسمعتها تقول : « سأنام الان » فقلت لها : « نامى يا يمامتى » فقالت ، وهى تقبلنى « يا حبة

فؤادي ومهجتي وحياتي » وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها اد سرعان ما أغمضت عينيهـا وبعـد قليـل ادركت من تنفسـها المنتظم الذى يعلو به صدرها الناضج كفاكهة البستان ويهبط لصق قلبى انهـا نامت . كنت أحبهـا ولا أطيق ان تتألم . اجل انهـا جاسوسة ، ولكن قلبى أمرنى ان اجنبها هول ما استوجبته على نفسها . ومن العجيب انني لم أشعر بالغضب لانها خانتني ، ولا بالكراهية لوضاعة فعلتها . كل ماشعرت به أن روحي تسـودها الظلمة الحالكة . واوشكت ان أنفجر باكيا رحمة بها ، وانا أجذب ذراعي برفق شديد من حول خصرها . ونهضت معتمدا على يدى ونظرت الى وجهها . ولكنها كانت جميلة جمالا مفرطا يعتصر القلب فأشـحت بوجهي بعيدا وانا أغمد مديتي بكل قوتي فى نحـرها البديع . ومن غير أن تستيقظ انتقلت سريعا من النوم الاصغر الى النوم الاكبر ...

وتوقف المكسيكي الامرد عن الـكلام وعاد يحدق الى الاوراق الاربع المقلوبة وهو لايجسر على الكشف عن وجوهها :

ـ كان كل ذلك فى الورق . فلماذا لم انتفع بالنذير ؟ سوف لا اكشف عن هذه الاوراق . عليها اللعنة !

وبحركة عنيفة من يده أطاح بالاوراق الى الارض واضطجع فى مقعده ولف لنفسه سيجارة ، وهو يقول :

ـ ومع أننى مفكر حر ، الا أننى دفعت مالا كثيرا لاقامة الصلوات على روحها فى جميع الكنائس التى أعرفها

وجذب من سيجارته نفسا عميقا ثم هز كتفيه ، وقال :

ـ قال لى الكولونيل أنك كاتب . ماذا تكتب ؟

ـ أكتب قصصا

ـ قصصا بوليسية ؟

ـ كلا

ـ ولم لا ؟ انها القصص الوحيدة التى اطالعها . ولو كنت كاتبا ! كتبت الا القصص البولسية

ـ ربما لانها شاقة جدا فى التأليف

وغير أشـندن مجرى الحديث وأخذ يتكلم مع المكسـيكى عن

مهمتهما . فهما سيفترقان عند روما ليتوجه المكسيكي الى برنديزى ويتوجه اشندن الى نابلى . واراد اشندن ان يعطى الجنرال رقم حجرته فى فندق طلماسب الذى سينزل به كى يصعد الى الحجرة مباشرة عند اللزوم من غير ان يسأل عامل الاستقبال . ولكنه بعد تفكير لم يعطه رقم الحجـرة بل جعله يكتب بخط يده عنوانه فى برنديزى على مظروف . ثم كتب أشندن رقم الحجرة فى قصاصة من الورق وأرسل الخطاب بالبريد كى يتسلمه الجنرال من شباك البريد فى برنديزى

وهز الجنرال كتفيه ، وقال :

— بالها من احتياطات اطفال ؛ فليس هناك ادنى مجازفة . وثق أنه مهما كانت النتائج فلن يصيبك أذى

— ليست هـذه المهمة مما تعودت ان أقوم به . ولـكنى انفذ تعليمات الكولونيل

— ليكن . ولكنى اردت أن اريد فى طمأنينتك . ويجب أن تشعر أنك بأمان من كل سوء كأنك تتنزه على شاطىء التاميز

واخيرا عندما افترق الاثنان فى روما ووجد أشندن نفسه وحده فى صـالون القطـار الذاهب الى نابلى زفر زفرة عميقة وشعر بالارتيـاح . وسره أن يتخلص من ذلك الثرثار القبيح الشكل الواسع الحيال . وذهب ذلك الرجل الى برنديزى ليقابل قسطنطين أندروبادى . وسرت الرجفة فى جسم اشندن . فان صح ولو نصف ماحدثه به الجنرال عن نفسه ، فالجاسوس اليونانى فى عداد الاموات منذ الآن وكان من العسير على أشندن أن يتصور ذلك اليونانى وهو يعبر بحر الادرياتيك غافلا عما ينتظره ، وحاملا تلك الوثائق السرية الخطيرة

ولكنها الحرب . والبلهاء وحدهم هم الذين يخيل اليهم انهـا يمكن أن تكسب بالوسائل الشريفة والمبادىء النظيفة وحدها

الفصل السادس

نتيجة غير متوقعة

عندما وصل أشندن الى نابلى اتخذ لنفسه حجرة فى الفندق وكتب رقمها فوق قصاصة ورق وارسلها داخل المظروف الذى كتب عليه المكسيكى الامرد عنوانه . وبعد ذلك توجه الى القنصلية البريطانية لان الكولونيل كان قد رتب الامور بحيث يرسل اليه عن طريق القنصلية أية تعليمات تعن له . وتبين لأشندن أنهم يعلمون بقدومه ؛ وان كل شيء قد أعدت له أهبته على خير وجه . وعندئذ اخلى ذهنه من هذه المسائل واسعد كى يتمتع بمهلة اقامته فى نابلى على احسن وجه

وفى الجنوب من ايطاليا كان الربيع قد أوغل فصارت الشمس شديدة الحرارة فى شوارع المدينة المزدحمة . وكان اشندن يعرف نابلى معرفة جيدة فكان ميدان القديس فردينانمو وميدان الاقتراع والكنيسة الجميلة القريبة من هناك تثير فى نفسه ذكريات حلوة

وجعل يتمهل عند نواصى الشوارع ، وينظر الى الحارات الضيقة التى ترقى بالسائر فيها الجبل رقيا عنيفا ، وعلى جانبيها البيوت العالية وقد علقت فيها الثياب المغسولة لتجف . وجعل يتلكأ فى مشيته على الشاطىء وهو يحملق فى البحر الازرق وقد ارتسمت على افقه البعيد مدينة كابرى بألوان باهتة . وأخيرا أفضى به المسير الى قصر عتيق متهدم قضى فيه وهو طفل ساعات ممتعة . ثم ركب عربة يجرها حصان واحد هزيل وكر راجعا الى فندقه

وظل اشندن يعيش على هذا النمط المتراخى الفارغ ثلاثة أيام . فكان لايفعل شيئا منذ الصباح حتى الليل سوى التجول على غير هدى ، والنظر لا بعين السائح المتعجبة ، ولا بعين الكاتب

المتفحصة ، بل بعين المتشرد الذى لايعنيه من هموم الدنيا شيء .
وتردد على المتحف ليرى روائع التماثيل والصور . والم طويلا بكنيسة القديسة كيارا لانه كان يعشق تلك الكنيسة بصفة خاصة

وفى الصباح الرابع فرغ اشندن من حمامه واخذ يجفف جسمه ، واذا بالباب يفتح بسرعة ويندفع الى داخل الحجرة رجل . فصاح اشندن :

ــ ماذا تريد ؟

ــ على رسلك . الا تعرفنى ؟

ــ يا الهى ! انه المكسيكى ! ماذا فعلت بنفسك ؟

وكان المكسيكى قد استبدل بشعره المستعار شعرا اسود قصيرا فتغير منظره كل التغير وان ظل شكله على العموم غريبا ، ولكن بصورة مختلفة عن ذى قبل . وكان يرتدى بذلة رمادية عتيقة

ــ سوف لا استطيع البقاء الا دقيقة واحدة . لانه يحلق ذقنه

فشعر اشندن بخديه يحمران فجاة وساله :

ــ هل وجدته اذن ؟

ــ لم يكن ذلك عسيرا . لانه كان اليونانى الوحيد بين ركاب السفينة . وقد صعدت الى ظهرها عندما القت مراسيها وجعلت اسال عن صديق ركبها من بيريه زعمت اسمه جورج ديوجينيدس . واظهرت دهشة شديدة لعدم حضوره وهكذا دخلت فى حديث مع اندريادى . وهو مسافر تحت اسم مستعار اذ سمى نفسه لومباردوس . وقد تبعته واقتفيت اثره بعد نزوله الى البر . فهل تدرى ماهو اول شيء فعله ؟ لقد ذهب الى دكان حلاق وحلق لحيته . فما رايك فى ذلك ؟

ــ لاشيء ، فاى شخص يستطيع أن يحلق لحيته

ــ ليس هذا ما اعتقده . لقد اراد أن يغير سحنته . انه ماكر . وانا شديد الاعجاب بالالمان لانهم لايتركون شيئا للصدف . وقد اصدروا اليه تعليمات مفصلة ، ولكني سأحدثك عن هذا بعد قليل

ــ ولكنك انت أيضا غيرت سحنتك

ــ انه الشعر . اليس كذلك ؟

ــ ماكنت لأعرفك !

ــ يجب على الانســان ان يلتزم الحيطة دائما . لقد اصبحت انا وهو صديقين حميمين . لانه كان قد قرر قضاء اليوم فى برنديزى وهو لايستطيع التخاطب باللغة الايطاليــة . وكان مسرورا جدا لوجودى بجانبه . ثم بعد سهرة لطيفة فى برنديزى ركبنا القطار معا . ولما وصلنا الى نابلى جئت به الى هنا . الى هذا الفندق ، وهو يقول انه سيسافر الى روما غدا . ولكنى لن أدعه يغيب عن ناظرى . فانا لا اود أن يروغ من يدى . وقد ابدى رغبة فى مشاهدة ملاهى نابلى ومعالمها . فعرضت عليه أن اصحبه واريه كل مايستحق المشاهدة فيها

ــ ولماذا لايذهب الى روما اليوم ؟

ــ هذا جزء من القصة . فهو يدعى انه رجل اعمال يونانى جمع ثروة طائلة فى مدة الحرب . ويقول انه كان يملك باخرتين ساحليتين فباعهما . وهو الآن ينوى الذهاب الى باريس كى يتمتع ويلهو ، فقد ظل طول عمره يتلهف على باريس ، الى ان سنحت له الفرصة اخيرا . وهو رجل كتوم بذلت جهدى فى استدراجه للكلام ، فقلت له اننى اسبانى وانى ذهبت الى برنديزى كى انظم اتصالات سرية مع تركيا لتهريب معدات حربية . فاصغى لما اقول ، وظهر عليه الاهتمام ، ولكنه لم يقل شيئا وبطبيعة الحال لم اجد من الحكمة أن أدفعه

ــ والوثائق ؟

ــ يحملها معه

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

ــ انه ليس شديد الحرص على جيوبه . ولكنه بين حين وآخر يتحسس خاصرته . فالوثائق اما أن تكون فى حزام داخلى أو فى بطانة سترته

ــ ولكن لماذا بحق الشيطان اتيت به الى هذا الفندق بالذات ؟

ــ ظننت ان ذلك يكون افضــل . لاننا قد نحتاج الى تفتيش امتعته

ــ وهل أنت مقيم هنا ايضا ؟

ـ كلا . فلست ابله الى هذا الحد . لقد قلت له اننى ذاهب الى روما بقطار الليل المتاخر ولهذا لا احتاج الى حجز غرفة والآن يجب ان اذهب لانى وعدته ان اقابله خارج دكان الحلاق بعد ربع ساعة

ـ وهو كذلك

ـ واين استطيع ان اجدك الليلة اذا احتجت اليك ؟

فنظر اشندن الى المكسيكى الامرد برهة طويلة ثم قال :

ـ ساقضى المساء فى حجرتى

ـ هذا عظيم . والآن هل لك ان تؤدى الى خدمة ؟

ـ ماهى ؟

ـ انظر هل فى الممر الخارجى احد

ففتح اشندن الباب ونظر فى الدهليز فلم يجد احدا . والواقع ان الفندق فى ذلك الموسم كان خاليا تقريبا من النزلاء فما اقل الاجانب فى نابلى فى زمن الحرب

ـ كل شيء على مايرام

فخرج المكسيكى الامرد يمشى فى اقدام وجراة منتصب القامة . واغلق اشندن الباب خلفه ثم حلق ذقنه وارتدى ملابسه ببطء . وكانت الشمس مشرقة كالعادة فى الميدان بصورة بهيجة . وكان كل شيء يقع عليه نظره يوحى بالسرور ، الا ان اشندن لم يشعر ببهجة ولا سرور فى ذلك اليوم ، لانه احس بعدم ارتياح داخلى . وذهب كعادته الى مقر القنصلية الانجليزية ليسالهم هل وردت باسمه رسائل برقية او بالشفرة . ولم يجد شيئا ، فذهب الى مكاتب شركة كوك للسياحة ، ونظر فى مواعيد القطارات المسافرة الى روما ليلا . فاذا هناك قطار يقوم بعد منتصف الليل بقليل ، وقطار آخر يقوم فى الخامسة صباحا . وتمنى لو استطاع ركوب القطار الاول

ولم يكن يدرى شيئا عن خطط المكسيكى . فلو انه كان حقا يريد الذهاب الى كوبا لكان من الافضل له ان يشق طريقه الى اسبانيا . ولما نظر اشندن الى مواعيد السفن ، وجد ان هناك سفينة ستبحر فى اليوم التالى من ميناء برشلونه

وكان أشندن قد سئم نابلى . وأخذ الشعاع الساطع باستمرار فى شوارعها يجهد عينيه . أما التراب فكان لايطاق ، والضوضاء تكاد تصم أذنيه

وتوجه اشندن بعد ذلك الى مقصف جاليريا وتناول كأسا من الشراب . وقضى فترة بعد الظهر فى دار للسينما . وبعد ان خرج من السينما ذهب مباشرة الى فندقه وقال لكاتب الاستقبال :

ــ سأسافر فى ساعة مبكرة جدا من صباح غد ، ولهذا أفضل ان أسوى حساب اقامتى الآن

وبعد تسوية الحساب اخذ أشندن حقيبته الى المحطة ولم يترك فى حجرته الا حقيبة كتب صغيرة فيها كتابان . وعاد الى الفندق فتناول الطعام وصعد الى حجرته لينتظر فيها المكسيكى الأمرد

ولم يستطع ان يخفى على نفسه انه كان مصبيا للغاية . وشرع يقرأ ولكن الكتاب كان شاقا فجرب الكتاب الآخر . ولكن انتباهه كان يخونه ، فيشرد كثيرا عن القراءة . وبدأ ينظر فى ساعته ، فاذا الوقت لم يزل مبكرا جدا ، فرجع الى الكتاب مرة أخرى ، وآلى على نفسه الا ينظر الى ساعته مرة اخرى ، الا بعد أن يتم قراءة ثلاثين صفحة بعناية تامة

ومع انه كان يقرأ السطور بامانة ودقة ولا يقفز منها شيئا الا انه لم يفقه شيئا كثيرا مما قرأه . وفى ختام الثلاثين صفحة نظر الى الساعة مرة أخرى فاذا بها لم تتجاوز العاشرة الا بدقائق قليلة . وبدأ يتساءل أين يكون المكسيكى الامرد الان ؟ وماذا يصنع ؟ وخشى ان يكون قد فشل فى مهمته

انها مهمة فظيعة ولكن . لابد من الانتظار . وقام برأسه أن يغلق النوافذ ويسدل الستائر ففعل ذلك . ثم أخذ يدخن السجائر بصورة متلاحقة الى أن صارت الساعة الحادية عشرة والربع . وخطر بباله خاطر جعل قلبه يدق دقا عنيفا . ودفعه الاستطلاع الى احصاء نبضه ، فأدهشه أن يجده عاديا تماما . ومع أن الليلة كانت دافئة ، والحجرة ثقيلة الهواء ، الا أن يديه وقدميه كانت باردة كالثلج

وضاق بمحلله الخصبه التى جعلت تحسم له اشكالا غريبه جدا ، وصورا لايريد ان يتمثلها بحال من الاحوال ! انه كاتب . وبحكم تلك المهنة كثيرا مافكر فى جرائم القتل ، وطالع فى ذلك الموضوع . والآن يراود ذهنه وصف لجريمة قتل جاء فى كتاب الجريمة والعقاب للكاتب دستويفسكى . وهو الآن لايريد ان يفكر فى ذلك الموضوع ولكن الموضوع يفرض نفسه عليه فرضا .

وسقط الكتاب من فوق ركبته وهو يسأل نفسه :

ـ هل نابلى مدينة يمكن أن يقترف احد فيها جريمة قتل ؟

ونظر اشندن مرة أخرى الى الساعة وقد شعر بتعب شديد . ثم كف عن محاولة القراءة لأن ذهنه قد اضحى كصحيفه بيضاء

وعندئذ انفتح الباب برفق شديد فقفز اشندن واقفا على قدميه وقد اقشعر بدنه . واذا بالمكسيكى الامرد ينتصب امامه . وساله باسما :

ـ هل افزعتك ؟ ظننت انك تفضل ألا أطرق الباب

ـ هل رآك احد وأنت تدخل ؟

ـ لقد فتح لى حارس الليل وكان نائما عندما دققت الجرس فلم ينظر الى . وانى آسف لانى تأخرت . ولكن كان يجب ان أغير ثيابى

وكان المكسيكى الأمرد الآن فى الثياب التى سافر بها ، وفوق راسه شعره المستعار الاشقر اللونالطويل . وكانالفرقالذىأحدثه هذا التغيير غريبا حقا ، فبدا أضخم قامة واشد ازدهارا . بل ان شكل وجهه نفسه تغير فعيناه الآن لامعتان ، وهو يبدو فى روح عالية جدا . ورمق اشندن بنظرة بريئة وقال :

ـ ما أشد شحوبك أيها الصديق ! لا اخالك متوتر الاعصاب ؟

ـ هل حصلت على الوثائق ؟

ـ كلا . لم يكن يحملها فى جيوبه . هذا كل ماكان معه

ووضع فوق المنضدة مفكرة جيب سميكة وجواز سفر . فقال أشندن :

ـ لا اريدهما . خذهما

فهز المكسيكى الامرد كتفيه واعاد « المخلفات » الى جيبه

ـ وماذا كان فى حـزامه ؟ قلت أنه كان يتحسـس خاصرته باستمرار

ـ لم أجد الا نقودا . وقد قلبت صفحات مفكرته فوجدك بينها صور نسـاء . ولابد أنه أودع الوثائق خزانة الفنـدق أو دولاب حجرته قبل أن يخرج معى للسهرة

ـ باللعنة !

ـ معى مفتاح حجرته . ومن المستحسن أن نذهب الآن ونفتش حقائبه تفتيشا دقيقا

فشعر أشـندن بغثيان فى معدته وتردد . فابتسم المكسـيكى ابتسامة لاتخلو من رقة ، وقال كأنه يطمئن صبيا صغيرا :

ـ لا مجازفة فى الامر ايها الصديق . ولكن اذا كنت غير مستريح فانا مستعد ان اذهب بمفردى

ـ كلا . انا قادم معك

ـ الكل نيام فى الفندق . وطبعا مستر اندريادى لن يعكر علينا صفونا . ويستحسن ان تخلع نعلك

ولم يجب أشـندن ولكنه لاحظ أن يديه ترتجفان قليلا وهو يفك رباط نعـله ويخلعه . وحذا المكسـيكى الامرد حذوه . ثم قال :

ـ من المستحسن ان تتقـدمنى أنت ايها الصـديق . در الى اليسار واتجه مباشرة فى الدهليز . والحجرة رقم ٣٨

وفتح اشندن الباب وخرج الى الدهليز الخافت الضـوء . وكان يضايقه ان يجد نفسه متوتر الاعصاب فى الوقت الذى يرى فيـه رفيقه هادىء الاعصاب للغاية

ولما وصلا الى الباب رقم ٣٨ أولج المكسـيكى الامرد المفتـاح فى الباب ودخل فأضاء النور . وتبعه أشـندن واقفل الباب ثم لاحظ أن المصاريع الخشبية مقفلة . وقال المكسيكى بكل ارتياح :

ـ نحن الآن على مايرام وأمامنا الوقت متسع كما تشاء

ثم اخرج من جيبه حلقة من المفاتيح اخذ يجـرب مفاتيحها فى حقيبة الملابس الى أن عثر على المفتاح المنشود . وأخذ يخرج المحتويات من الحقيبة ، ثم قال بازدراء :

ــ ملابس من نوع رخيص ! مبدئى دائما انه من الارخص للانسان على طول المدى ان يستري احسن الانواع . لانه اما ان يكون الانسان سيدا شريفا أو هو ليس بسيد شريف . والملابس تدل على التشخص
فسأله أشندن بغيظ :
ــ هل من الضرورى أن تكلم ؟
فابتسم المكسيكى الامرد ، وقال :
ــ ريح الخطر تؤثر على الناس بأساليب مختلفة . فهى مثلا تثير حيويتى فقط . أما انت فتتلف مزاجك أيها الصديق !
ــ وواضح أننى مرتاع اما انت فلا
ــ مسألة أعصاب ليس الا

واخذ يتحسس كل ثوب بسرعة ودقة فلم يجد أوراقا من أى نوع . فأخرج مديته وشق بطانة الحقيبة الداخلية فلم يجد شيئا بداخلها
ــ الوثائق ليست هنا . فلابد انها مخبأة فى الحجرة
ــ اواثق أنت انه لم يودعها فى مكان ما ؟
ــ مثل ؟
ــ احدى القنصليات مثلا
ــ انه لم يغب عن نظرى لحظة واحدة الا وهو فى محل الحلاقة

وفتح المكسيكى الامرد الادراج والدولاب . أما الارض فكانت عادية ، ثم فتش بين الحشايا والوسائد . وكانت عيناه السوداوان تتنقلان فى وميض ثاقب بين أرجاء الحجرة بحثا عن مخبأ . وشعر اشندن أن لا شيء يغيب عن تلك النظرة الفاحصة . فقال
ــ تركها فى خزانة الفندق أمانة
ــ وهذا ايضا كنت خليقا أن أعلمه . ثم انه ماكان ليجسر على تلك المجازفة . انها ليست هنا وهذا ما أعجز عن فهمه
ــ هيا بنا نخرج
ــ دقيقة واحدة ...

ثم ركع المكسيكى على ركبتيه واخذ يطوى الملابس بسرعة واناقة واقفل الحقيبة ثم نهض واقفا واطفأ النور . وفتح الباب

بتؤدة ونظر فى الدهليز ثم أومأ الى اشندن وتسلل خارجا . فلما تبعه اشندن اقفل المكسيكى الباب بالمفتاح وسار مع أشندن الى حجرته . وبعد ان أغلق اشندن الحجرة بالمزلاج جفف يديه وجبهته من العرق الغزير ، وصاح :

ــ الحمد لله . خرجنا من هناك سالمين

فابتسم المكسيكى برفق وقال :

ــ الحق أنه لم يكن هناك ادنى خطر . ولكن ماذا نصنع الآن ؟ سيغضب الكولونيل لاننا لم نعتر على الاوراق

ــ سأستقل قطار الخامسة صباحا الى روما . ومن هناك سابرق الى الكولونيل فى طلب التعليمات

ــ وهو كذلك . سآتى معك

ــ اعتقد انه من الافضل لك أن تغادر هذه البلاد بأسرع مايمكن . وغدا ستبحر من هنا سفينة الى برشلونه . فلماذا لا تستقلها واذا لزم الامر ذهبت لمقابلتك هناك ؟

فابتسم المكسيكى الامرد ، وقال :

ــ أراك متلهفا على الخلاص منى . ولكنى لن اخيب رغبة أملتها خبرتك فى هذه الامور . وسأسافر الى برشلونه ولدى تأشيرة دخول اسبانية

ونظر أشندن الى ساعته وكانت قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل بقليل فأمامه ثلاث ساعات من الانتظار . ورأى زميله يلف سيجارة بكل راحة بال ثم قال لأشندن :

ــ مارايك فى وجبة عنساء متاخرة الآن ؟ فانى اشعر بجوع شديد ، كجوع الضوارى

وكانت كلمة الطعام كافية لشعور اشندن بغثيان . ولكن حلقه كان جافا وبه رغبة فى الشرب . ولم تكن به رغبة فى الخروج مع المكسيكى الامرد . وفى الوقت نفسه لم تكن لديه رغبة فى البقاء بذلك الفندق وحده ، فسأل المكسيكى :

ــ أين يستطيع الانسان ان يذهب فى هذه الساعة ؟

ــ تعال معى وساجد مكانا مناسبا

فوضع اشندن قبعته على راسه وحمل حقيبه الكتب ونزلا على

أطراف الاصابع حتى لايوقظا حارس الليل النائم فوق مكتب الاستقبال . ولكن عين أشندن لمحت في الكوة التي تحمل رقم حجرته خطابا . فأخذه ووجد عليه عنوانه فدسه في جيبه ، وخرجا من باب الفندق بحذر ثم أغلقاه ومشيا بسرعة نحو مائة خطوة . وتحت ضوء مصباح في الشارع فض اشندن الخطاب فاذا به من القنصلية :

ــ نتشرف بارسال هذه البرقية الشفرية التي وردت الليلة بصفة عاجلة

ولابد أن الخطاب وصل الى الفندق قبل منتصف الليل . ولكن كسل الطليان المعروف جعل الموظف يودعه الكوة ولا يلتفت الى كلمة عاجل جدا المكتوبة على الظروف . رغم أن رسولا خاصا من القنصلية حمله الى الفندق . .

وفض اشندن البرقية الشفرية . ولما كانت عملية حل الشفرة تستغرق وقتا فقد دس البرقية في جيبه الى ان ينفرد بنفسه

وكان المكسيكى الامرد يسير كمن يعرف الطريق تماما في هذه الشوارع المقفرة وأشندن يسير بجواره . وأخيرا وصلا الى حانة في زقاق مغلق تنبعث منها ضجة ورائحة نفاذة . فدخل المكسيكى وهو يقول :

ــ انها ليست فندق ريتس بطبيعة الحال . ولكن في هذه الساعة من الليل لايوجد الا مثل هذه الحانة . وبين السكارى الفقراء وفتيات الليل القبيحات جلس الاثنان ، وطلب الجنرال طبقين من الاسباجتي وزجاجة من نبيذ كابرى . وما ان جاء الساقى بالزجاجه حتى شرب نصفها جرعة واحدة . وعزفت الموسيقى ، فقام بعض السكارى ليرقصوا مترنحين . ونهض الجنرال ايضا وقال لأشندن :

ــ الا ترقص ؟ سارقص مع احدى أولئك الفتيات

وانتقى فتاة ذات عينين لامعتين واسنان ناصعة فراقصها ولاحظ اشندن أنه يرقص ببراعة . وانه يتحدث الى المرأة وان كلماته جعلتها تبتسم ثم تضحك . وظهرت آيات المرح على ذلك الحديث الى نهاية الرقصة ، وعندئذ عاد الى اشندن واخذ يحثه على

الرقص كي يشعر بالبهجة ولا يطول عليه وقت الانتظار

وصدحت الموسيقى مرة اخرى . فنظر الى الفتاة التى كان يراقصها واشار بأصبعه فقفزت قادمة نحوه . فكاد يختطفها من فوق الارض وهو يدور معها ثم اخذ يوزع النكات على الجالسين والراقصين بلغة ايطالية طلقة ، فارتفعت الكلفة بينه وبين الجميع

وفى وسط الرقصة راى الساقى يحمل طبقى مكرونة فترك الفتاة بلا مقدمات واسرع الى الطعام . ولما اكد له اشندن انه لايريد ان ياكل شدد عليه . فاكل اشندن مضغة واذا به يكتشف انه جائع جدا فاكل بقية الطبق . اما الجنرال فالتهم طبقه التهاما ثم طلب زجاجة اخرى من النبيذ . ثم مد ذراعه ليربت على ذراع اشندن . فصرخ اشندن :

ـ ماهذا الذى يلطخ كم معطفك ؟

فالقى المكسيكى نظرة الى كمه وقال :

ـ هذا ؟ لاشىء . نقطة دم . حدث لى حادث صغير وجرحت نفسي ، وسكت اشندن ثم تطلع الى الساعة المعلقة فوق باب الحانة

ـ اتفكر فى قطارك ؟ دعنى استمتع برقصة اخرى ثم اصحبك الى المحطة

ونهض المكسيكى بثقته التى لاحد لها وراقص اقرب امراة الى يده . واخذ اشندن يتابعه بنظراته وهو متعجب ومعجب برشاقته الفائقة ومرحه ولولا انه ينبغى أن يصفى معه حسابا معينا على حسب التعليمات قبل سفره لتركه يرقص حتى الصباح واتجه الى المحطة بمفرده

وكانت التعليمات أن يسلم المكسيكى مبلغا معينا فى مقابل وثائق معينة . والوثائق لم يعثر لها على اثر . وهو لا يدرى ما العمل الآن . وقطع عليه حبل أفكاره تلويح المكسيكى الامرد له وهو يمر بقربه

ـ ساتى بمجرد توقف الموسيقى عن العزف . ادفع الحساب حتى تكون على تمام الاستعداد

وتمنى اشندن لو انه استطاع النفاذ الى عقل هذا الرجل

العجيب . [illegible] سر تركيبه الخاص

وتوقفت الموسيقى واقبل المكسيكى وهو يجفف بمنديله المعطر العرق عن جبينه . فساله اشندن :

ــ هل استمتعت بوقتك ياجنرال ؟

ــ انا دائما استمتع بوقتى . نساء قبيحات . نفايات بيضاء ولكن ماذا يعنينى ؟ انا احب ان اشعر بجسد امراة بين ذراعى وان ارى عينيها تنكسران ، وشفتيها تنعرجان ، لان جاذبيتى اذابت نخاع عظامها كما يذوب الزبد فى حرارة الشمس . نفايات بيضاء . ولكنها نماذج من الانوثة ، وانا لابد لى من اناث . .

ومشى الاثنان فى طريق المحطة . وكانت ليلة صائفة ، الريح فيها ساكنة ، والصمت يسير معهما كانه شبح ميت ، وقرب المحطة كانت فى البيوت بقية من حياة . وسرت فى الليل رجفة مقلقة تنذر بقرب طلوع الفجر . وسرعان ماضمهما مبنى المحطة . وكانت الاستراحة خالية فجلسا فى ركن منها . وكانت الساعة الرابعة . وامام اشندن ساعة كاملة فاخرج البرقية واخذ يحل رموز الشفرة المعقدة . وعندما فرغ من ذلك اخيرا قراها جملة واحدة . فاذا بها كالآتى :

ــ قسطنطين اندريادى عاقه المرض عن ركوب السفينة من بيريه . عد حالا الى جنيف وانتظر التعليمات

وصرخ اشندن بصوت مكتوم :

ــ ايها الاحمق ! لقد قتلت رجلا لا جريرة له !



الفصل السابع

رحلة إلى باريس

وكان من عادة اشندن أن يؤكد دواما انه لا يعرف السأم . ومن آرائه ان من يسأم من الناس انما هم الذين ليست في نفوسهم مصادر للمعرفة أو الاهتمام أو الاستمتاع . والاغبياء هم الذين كل اعتمادهم في التسلية والاستمتاع على العالم الخارجي

ولم تكن لدى اشندن أوهام عن نفسه ، وما أوتيه من نجاح في عالم الادب لم يحدث برأسه دوارا . فكان يفرق بدقة بين الشهرة ذات الجذور والاساس وبين الشهرة السهلة التي تواتي مؤلف رواية ناجحة أو مسرحية موفقة . وهذا النوع الاخير من الشهرة لم يكن اشندن يكترث له الا بمقدار مايفيء عليه من امتيازات أو منافع ملموسة . فهو مستعد تمام الاستعداد أن يستفيد من اسمه الذائع كي يحصل على قمرة فوق سطح السفينة افضل من القمرة التي دفع أجرها . واذا اتفق أن ضابط الجمرك اجاز حقائب اشندن من غير أن يفتحها لانه قرأ له قصصه القصيرة ، فهو حري أن يقر بأن ممارسة الادب لا تخلو من عائد نافع . ولكنه كان يتنهد وهو يحس بضيق صدره حينما يلح عليه شباب طلاب الفنون التمثيلية كي يناقشوا معه حرفية التأليف المسرحي . وكذلك حينما تهمس العجائز القبيحات من النساء في أذنه باعجابهن الشديد بكتبه وكان يتمنى في أعماق نفسه لو مات

وكان اشندن يعتقد في نفسه الذكاء . فكان من السخف مع هذا الاعتقاد أن يسلم نفسه للسأم .. والواقع انه كانت لديه القدرة على الحديث الى أشخاص لهم شهرة مستفيضة بالغباء وثقل الظل ، حتى ان الناس يهربون من مجالستهم كأنهم من الدائنين . فمثل هؤلاء

الناس هم المادة الخام التى يصوغ منها شخصياته الروائية . ولديه الآن كل شيء يطمح اليه الرجل العاقل كى يجد التسـلية المعقولة . فتحت تصرفه غرف لطيفة في فندق من أجود فنادق جنيف، وجنيف من الطف المدن التى تطيب فيها الاقامة فى اوروبا قاطـة

ومن عادة اشندن ان يستاجر زورقا للتجديف فوق مياه البحيرة أو حصـانا يركبه للسير البطيء . ففى هـذه المدينة الانيقة لاتوجد مساحات من الارض مكسوة بالعشب يستطيع المرء فيها ان يجـرى بجواد راكض . وفى أحيان أخرى كان يتجول راجلا فى الشـوارع القديمة ، ويحاول ان ينفذ ، وهو بين تلك البيوت الحجرية الرمادية الهادئة الوقور ، الى روح العصر الغابر الذى بنيت فيه . وكان يقرأ أيضا فى تلك المدينة مرة بعد أخرى اعترافات روسو الرائعة . وحاول عبثا اكثر من مرة أن يتم قراءة روايته المشهورة . الويز الجديدة . وبين حين وحين كان يكتب صفحات متفرقة . اما الناس فكان لايختلط بهم كثيرا . فمهنته الراهنة لاتخول له التعرف الى عدد كبير منهم . ولكنه على صلات سطحية بعدد قليل من نزلاء الفندق فى الحدود التى تسمح له بتبادل الحديث السطحى العابر ، كى لايشعر بالعزلة التامة . وهكذا كانت حياته حافلة بما فيه الكفاية ، غير خالية من التنويع ، وفى الاوقات التى لايجد فيها مايفعله كان يلوذ بأفكاره وخواطره الخاصة فيجد فى ذلك سلاة غير قليلة

فمن العبث اذن أن يظن ظان أن اشندن كان فريسة للسـأم والملل . فكان يكفيه مثلا وهو يركض بجواده حول مدينة جنيف أن يتذكر سحنة رؤسائه فى ادارة المخابرات السرية ، ويتسلى على حسابهم ، ولو على سـبيل الانتقام . فمن العدل ان نعترف أن أولئك الرؤساء يسـتمتعون بتحريك جهاز المخابرة الضـخم ، ويشـاهدون النتائج المثيرة ، ويطلعون على التحـركات والتيارات الخفية التى تشبه لعبة شطرنج هائلة . فى حين يشقى المرءوسون من الجواسيس والعملاء امثال اشندن بتنفيذ خطوات جزئية لايتاح لهم فى الغالب فهم شيء عن أسبابها ، أو الاطلاع على شيء من كنهها . وكأنهم آلات صماء تتحرك بغير شعور أو ادراك أو دمى خشبية

ينفذ بها أغراضه . مما يجعل الغيظ يترسب فى الاعماق عن غير قصد

والحقيقة أن نظام اشندن اليومى فى العمل كان رتيبا متشابها كحياة مستخدمى المكاتب . فكان يقابل الجواسيس الذين يعملون تحت اشرافه فى فترات مرسومه بدقه ويسلمهم رواتبهم

وعندما ينفق له أن يقع على عنصر صالح للجاسوسية كان يستخدمه ويصدر اليه تعليماته ، ثم يبعث به الى المانيا ، وينتظر مايمكن ان يرسله من المعلومات ، فيتولى توصيلها الى القيادة العامة . وكان يعبر الحدود مرة واحدة كل اسبوع ليتباحث مع زميله مدير الجاسوسية فى فرنسا ، ويتسلم منه تعليمات لندن

أما سوق جنيف فكان يذهب اليه يوميا ، ليغطى ذهابه فى يوم السوق الاسبوعى كى يقابل بائعة الزبد ويسلم منها اية رسالة يمكن أن تاتيه بها عبر الحدود . وكان دائما مفتوح العينين والاذنين لكل همسة وكل حركة . ويكتب تقريرات طويلة كان يظن ان احدا لا يقرؤها فى القيادة كما هو معهود فى المكاتب الحكومية ، الى أن جاءه ذات يوم توبيخ على بعض عبارات هازلة وردت فى غضون احد تقاريره ..

ومن بين اسباب التسلية التى حاول ان يرفه بها عن نفسه ، وتخفف من رتابة عمله المتشابه فى جنيف ، أن فكر ذات يوم فى مغازلة البارونة فون هيجنز .. فهو الآن واثق من انها جاسوسة فى خدمة الحكومة النمساوية . ولذا كان يتوقع أن يسفر الصراع الماكر بينهما عن لذة مثيرة . فمن المسلى ولا شك أن يلتحم ذكاؤه بذكائها فى مناورة . وكان على يقين من أنهـا ستحرص على نصب الفخاخ له باستمرار ، ومما لاشك فيه أن روغانه من تلك الفخاخ سيكون له نشاطا ذهنيا ينفض الصدأ عن عقله . ووجد لديها استعدادا لتلك اللعبة الشائقة ، فكلما أرسل اليها باقة من الازهار بعثت اليه بكلمة رقيقة

واقدم بعد ذلك على دعوتها الى نزهة فى قارب بالمجاديف على متن البحيرة ، فلبت طلبه واسترخت فى القارب الصغير وادلت ذراعيها البيضاء العارية الطويلة المشوقة بحيث انغمست اناملها البضة فى

الماء واخذت تحدثه عن الحب حديثا لمحت فيه تلميحا الى قلبها المحطم . وتناولا العشاء بعد ذلك معا ، ثم توجها لمشاهدة تمثيل باللغة الفرنسية نثرا لرواية روميو وجولييت ...

ولم يكن اشندن قد استقر رايه بعد على المدى الذى يبلغه فى علاقته بهذه البارونة عندما جاءته رسالة ذات لهجة حادة من الكولونيل ، يستفسره عن هدفه من تلك اللعبة ، لان المعلومات قد وصلت الى الرئاسة بأن اشندن يكثر من الاختلاط بامراة تدعو نفسها البارونة هيجنز وهى فى الواقع جاسوسة لدول المحور . وأنه من غير المرغوب فيه أن تكون لاشندن بها اية علاقات سوى علاقات المجاملة فى حدها الادنى !

وهز اشندن كتفيه استخفافا وقد ادرك أن الكولونيل لا يحسن الظن به ، كما يحسن هو الظن بنفسه . ولكنه أيقن بعد ذلك من صدق الظن الذى ذهب اليه من قبل من وجود شخص ما فى مدينة جنيف مكلف من قبل الكولونيل بمراقبة حركاته وسكناته ورفع التقارير عنه الى رؤسائه ، للتأكد من انه لا يهمل فى اداء واجباته ولا يتورط فى المزالق . وكان هذا مما زاد فى تسلية اشندن ، كأنه مشترك فى لعبة استخفاء ضخمة . وزاد اعجابه بالكولونيل الداهية الذى لا يترك شيئا للمصادفات ولا يثق بأى شخص ثقة كاملة . ان الناس في نظر هذا الكولونيل أدوات يستخدمها فى اغراضه ، من غير ان يحاول تحديد قيمة لهذه الاداة او تلك

وجعل اشندن يستعرض فى مخيلته الاشخاص المحيطين به عسى ان يعرف على وجه التحديد من هو ذلك الشخص الذى وشى به عند الكولونيل . ورجح عنده أن هذا الشخص احد سقاة الفندق وخدمه . فهو يعهد الكولونيل ميالا لاستخدام خدم الفنادق فى التجسس . ولا عجب ! فطبيعة عملهم تسمح لهم برؤية الكثير وسماع الكثير بحكم وجودهم فى مواطن التقاء النزلاء والغرباء

ثم خطر له بعد ذلك انه ليس من المستبعد ان يكون الكولونيل قد حصل على تلك المعلومات من البارونة نفسها ، فليس من المستبعد بعد كل شىء أن تكون فى خدمة احدى دول الحلفاء . فالكثيرون يأكلون على المائدتين فى زمن الحرب

وعلى كل حال فقد استمر أشندن فى علاقة المجاملة المهذبة تجاه البارونة . ولكنه كف عن التودد اليها

وذات يوم عاد أشندن من نزهته على ظهر جواده ، ودخل الفندق فوجد لدى موظف الاستقبال برقية هذا نصها :

« العمة ماجى مريضة ومقيمة بفندق لوتى بباريس . أرجوك اذا امكن أن تذهب لزيارتها — ريموند »

وكان اسم ريموند من الاسماء المستعارة التى يؤثر الكولونيل استخدامها . ولما كان اشندن ليست له عمة بهذا الاسم ، فقد أدرك أن الكولونيل يأمره بالتوجه الى هذا الفندق فى باريس . وكان يعرف أن الكولونيل حين يكون منشرح الصدر يستخدم أساليب الروايات البوليسية الرخيصة . ومعنى أن الكولونيل فى حالة نفسية جيدة أنه متأهب لتسديد ضربة جديدة . اما بعد اتمام الضربة فانه يكون فى حالة نفسية سيئة تترك آثارها على تصرفاته مع مرءوسيه

ووضع اشندن البرقية باهمال مقصود فوق المكتب ثم سأل موظف الاستقبال عن موعد القطار السريع المتجه الى باريس . ثم نظر الى ساعته ليرى هل امامه متسع من الوقت للتوجه الى القنصلية قبل مواعيد الاغلاق كى يحصل على تأشيرة الدخول

وبينما هو يصعد السلم ليحضر جواز سفره من حجرته قال له عامل الاستقبال :

— لقد ترك السيد برقيته

— ما اغبانى !

وهكذا صار من المؤكد لدى أشندن أنه فى حالة تساؤل البارونة عن سبب سفره المفاجىء الى باريس قد تعلم أن مرض قريبته هو السبب . ومن المستحسن فى زمن الحرب ان يعتبر الانسان كل من حوله جواسيس ، ولا سيما موظفو الفنادق

وكان معروفا فى القنصلية الفرنسية ، فلم يستغرق وقتا طويلا فى الحصول على تأشيرة الدخول . ثم طلب من عامل الاستقبال فى الفندق أن يحصل له على تذكرة فى القطار السريع ، وصعد الى حجرته ليستحم ويبدل ثيابه وهو مسرور بالذهاب الى باريس ، ولانه يحب تلك الرحلة فى القطار السريع مابين جنيف والعاصمة الفرنسية .

ثم انه من الاشخاص الذين يستطعمون النوم في عربات النوم بالمطارات . واذا ايقظه الوقوف المفاجيء في احدى المحطات يلذ له ان يدخن سيجارة في الظلام مستطيبا تلك الوحدة . واذا استيقظ على ضجة القطار اصغى لصوت العجلات ، وهدير البخار ، وشرد بخواطره وافكاره ، وخيل اليه ان القطار في جوف الليل شهاب يشق اجواز الفضاء الى مصير مجهول

وعندما وصل اشندن الى باريس كان الجو باردا والمطر يسقط رذاذا ، وشعر بحاجته الى حلاقة ذقنه ثم الاستحمام وتبديل ثيابه . ولكنه آثر ان يتصل من المحطة تليفونيا بالكولونيل ويسأله :

ــ كيف صحة العمة ماجي الآن ؟

واجابه صوت الكولونيل والضحك يعترض كلماته :

ــ يسرني ان ارى عواطفك نحوها تدفعك الى الحضور بغير ابطاء . فحالتها في تأخر شديد . وان كنت واثقا انه سوف يسرها ويفيدها صحيا ان تراك

ــ ومتى تسمح لها ظروفها باستقبالي فيما تظن ؟

فضحك الكولونيل وقال :

ــ اعتقد انها ستكون حريصة على تنسيق زينتها قبل حضورك . فهي كما تعلم متعلقة دائما بمظهرها . فليكن اذن الموعد في منتصف الحادية عشرة . وبعد ان تجاذبها اطراف الحديث سيكون في وسعنا ان نخرج لتناول الغداء معا في مكان ما

ــ وهو كذلك ، . احضر الى فندق لوتي في العاشرة والدقيقة الثلاثين

وعندما وصل اشندن لى الفندق وقد صار نظيفا انيقا مجدد النشاط ، استقبله جندي المراسلة الذي يلازم الكولونيل في البهو السفلي ، ثم صحبه الى جناح الكولونيل الخاص ، ففتح الباب وادخل اشندن . واذا بالكولونيل واقف وظهره مستند الى كتلة من الخشب مشتعلة في المدفأة ، يملي على سكرتيره . فقال :

ــ اجلس

ثم واصل الاملاء . وكانت حجرة الجلوس حسنة الاثاث . وهناك مجموعة من الورد في زهرية ، مما يوحي بأن التي رتبتها بهذا الذوق

امراة مترفه . وفوق منضدة كبيرة كومة ضخمة من الاوراق . وكان الكولونيل يبدو اكبر سنا من آخر مره رآه فيها أشسندن . وكان وجهه النحيل الاصفر احفل بالغضون والتجاعيد ، وشعره أشد بالشيب اشتعالا . وكانت وطأة العمل بادية عليه فهو لم يكن يرحم نفسه أو يدخر شيئا من طاقته . يستيقظ فى السابعة صباحا كل يوم ويظل يعمل فى داب الى ساعة متأخرة من الليل

واخيرا قال الكولونيل :

ــ هذا يكفى . وخذ معك كل هذه الاوراق واكتبها على الآلة . فانى اريد أن اوقعها قبل ان اخرج للغداء

وقال للمراسلة انه لا يريد ان يزعجه احد فى خلوته بأشسندن

وكان السكرتير ملازما ثانيا فى الحلقة الثالثة من عمره . وكان واضحا انه مدنى مجند بصفة مؤقتة . وجمع السكرتير كمية الاوراق وغادر الحجرة . وخرج وراءه لمراسلة . ولما صار أشسندن والكولونيل وحدهما التفت الكولونيل اليه وقال :

ــ هل استمتعت برحلة طيبة ؟

ــ نعم ياسيدى

فأشار الكولونيل الى حجرة الجلوس من حوله وقال :

ــ وما رايك فى هذا النظام ؟ لا باس به . اليس كذلك ؟ وانا لا أرى مانعا يمنع الناس من محاولة التخفيف من متاعب الحرب كلما امكنهم ذلك

وكان الكولونيل اثناء هذه الثرثرة يحدج أشسندن تحديجا قويا . وكانت النظرة من عينيه الباهتتين توحيان اليك أنه ينظر الى عقلك عاريا ولا يعجبه ما يدور فيه ! ومن خصائص الكولونيل أنه فى بعض الاحيان لا يكتم اعتقاده بأن جميع افراد الجنس البشرى آما بلهاء واما أوغاد . . . وكانت هذه احدى العقبات الكثيرة التى تمنع الالفة بينه وبين الناس وتجعله لا يثق بهم . لانه فى الغالب يفضل أن يسوى حسابه على اعتبار أن الناس جميعا أوغاد ، فذلك أدعى للحرص وعدم خيبة الامل

والكولونيل جندى محترف قضى معظم مدة خدمته فى الهند والمستعمرات . وعند اندلاع نيران الحرب كان معسكرا فى جمايكا .

وتذكره واحد ممن تعاملوا معه من رجال وزارة الحربية فاختاره لادارة المخابرات . وكانت كفاءته الفائقة سببا فى سرعة ترقيه الى منصبه الخطير . فهو والحق يقال ذو طاقة ضخمة على العمل وموهبة فى التنظيم مع شجاعة وعزم وجمود عاطفة

ولعله خال من مواطن الضعف سوى موطن واحد وهو أنه لم يخالط طول حياته من النساء على وجه الخصوص احدا من ذوات الاقدار الاجتماعية المعتبرة . فكل من عرفهن طول حياته من النساء هن زوجات زملائه الضباط وزوجات موظفى الحكومة وزوجات رجال الاعمال . فلما جاء الى لندن فى بداية الحرب واصبح فى عمله الجديد على صلة بهم بنساء ممتازات لامعات حسناوات ، بهره ذلك فشعر بالخجل والضآلة نحوهن . ولكنه استمر على صلاته الاجتماعية بهن وصار من المولعين بالنساء . وكان اشندن يعرف عنه أكثر مما يخيل اليه . ولذا كان لزهرية الورد الاحمر عنده مغزى واضح غير الذى حاول الكولونيل ايهامه به من تخفيف وطأة الحرب

وكان اشندن يعلم تمام العلم ان الكولونيل لم يرسل اليه ليتحدث عن الجو والمحصولات . وتساءل بينه وبين نفسه متى سيدخل الكولونيل فى الموضوع . ولم يطل تساؤله :

ــ لقد ابليت بلاء حسنا فى جنيف

ــ يسرنى انك ترى هذا الراى ياسيدى

وفجأة بدا الكولونيل قاسيا حازما . لقد نفض يده من حديث المجاملة

ــ عندى لك عمل يا اشندن

ولم يجب اشندن ولكن قلبه اختلج بالسرور . واستطرد الكولونيل :

ــ هل سمعت عن شندرالال من قبل ؟

ــ كلا ياسيدى

وظهر نفاذ الصبر على جبين الكولونيل المقطب . لانه كان يتوقع من مرءوسيه ان يعرفوا كل شىء يرغب فى ان يعرفوه

ــ واين كنت تعيش يارجل طيلة هذه السنين ؟

ــ فى رقم ٣٦ شارع شسترفيلد بحى ماى فير !

فلاح شبح ابتسامة على وجه الكولونيل الاصفر . فقد كان يعجبه مثل ذلك الرد الساخر . واتجه الى المنضدة الكبيرة ، وفتح حقيبة أوراق كانت فوقها فاستخرج منها صورة فوتوغرافية قدمها الى أشندن :

ـ هذا هو شندرالال

وبالنسبة لاشندن الذى لم يألف رؤية الوجوه الشرقية كانت الصورة تبدو كأية صورة لاحد راجات الهند الذين يحضرون فى زيارات موسمية الى لندن وتنشر صورهم فى المجلات المصورة . فالوجه بدين ، والبنية مفرطحة والشفتان ممتلئتان ، والانف كبير ، والشعر اسود غزير مستقيم . وعيناه المفرطحتان فى السعة أشبه فى الصورة بعينى البقرة ، وهو يبدو على غير سجيته فى الثياب الاوروبية

واعطى الكولونيل لاشندن صورة اخرى ، وهو يقول :

ـ وهذا هو فى ثيابه القومية

وكانت الصورة الاخرى تمثله بطوله . اما الاولى فلا يظهر فيها الا الراس والكتفان . ويبدو أنها كانت مصورة منذ بضع سنوات فهو فيها انحف حتى أن عينيه الكبيرتين الجادتين جدا كادتا تبتلعان وجهه . والمصور الذى صنع الرسم هندى من كلكتا جعل وراء ظهر شندرلال نخلة نابتة على شاطىء البحر . ووقف شندرالال ويده متكئة على اصيص به نبات المطاط . ومع هذا كان يبدو فى عمامته الكبيرة وازاره الابيض الطويل رجلا مهيبا

وسأل الكولونيل :

ـ ما رايك فيه ؟

ـ انه رجل لا يخلو من شخصية . فيه قوة ومضاء

ـ هاك الملف الخاص به . اقراه جيدا

وقدم الكولونيل الى اشندن صفحتين مكتوبتين على الآلة الكاتبة فانصرف الى قراءتهما . ووضع الكولونيل نظارته فوق عينيه ، وشرع يتصفح الخطابات التى تنتظر توقيعه

وتصفح اشندن التقرير بسرعة ثم اعاد تلاوته بمزيد من التمعن . ويبدو ان شندرالال كان مهيجا من اخطر المهيجين . وحرفته الاصلية المحاماة ، بيد انه احترف السياسة وصار من اعدى اعداء الحكم

الانجليزى فى الهند . وممن يؤمنون بضرورة استخدام القوة المسلحة وفى كثير من حوادث الشغب التى أهدرت فيها الدماء كان لشندرالال اصبع كبير . وقبض عليه مرة وحوكم وادين وقضى فى السجن سنتين . فلما كانت بداية الحرب ، وكان قد اطلق سراحه ، انتهز الفرصة وبدأ يستعد للتمرد المسلح الصريح . ومنذ ذلك الوقت وهو فى قلب كل مؤامرة لاحراج الحكم الانجليزى فى الهند ، حتى يحول ذلك بين انجلترا ونقل القوات من هناك الى ميدان الحرب فى أوروبا . وكان الالمان يغدقون عليه مبالغ طائلة من المال ، مما يتيح له الانفاق على تلك المؤامرات والاضطرابات الواسعة المدى . وقد ثبت اشتراكه وتدبيره لاكثر من عملية نسف بالقنابل ، ازهقت فيها ارواح الابرياء من المارة وأصيبت الممتلكات باضرار . وكان لها أثر كبير فى هز اعصاب الرأى العام وافساد الروح المعنوية . واستطاع شندرالال أن يفلت من جميع المحاولات التى بذلت لالقاء القبض عليه وكان نشاطه هائلا ، يكثر من التنقل هنا وهناك ومع هذا عجزت الشرطة عن ايقاعه فى شباكهم وهو عندما يؤلب الجماهير فى مدينة ما ، فانه لا يلبث أن يغادرها بعد أن يفرغ من مهمته بها

وأخيرا رصدت جائزة كبرى للارشاد اليه ففر من الهند الى امريكا . ومن هناك انتقل الى السويد ثم الى برلين . وفى برلين جعل همه بذر بذور الشقاق بين القوات الهندية التى جىء بها الى أوروبا

كل ذلك ذكره التقرير بطريقة جافة من غير تعليق أن توضيح . ولكنك من خلال السطور تحس بروح الغموض والمغامرة والقدرة الخارقة على الافلات من المخاطر فى جراة وجسارة . وجاء فى ختام التقرير ما يلى :

« وشندرالال له زوجة فى الهند وطفلان . وليست له علاقات نسائية ولا يدخن أو يشرب الخمر ، ويقال انه امين . وهو ذو شجاعة فائقة وجلد على العمل . ويقال انه شديد الاعتزاز بمحافظته على وعده »

ولما انتهى اشندن من التقرير اعاده الى الكولونيل فسأله :

ـ وما رايك

ـ انه يبدو متعصبا جدا وشديد الخطورة

والواقع ان اشندن كان يرى فى شخصية شندرالال كثيرا من عناصر الرومانتيكية الجذابة ، ولكنه كان حريصا على عدم الافضاء بهذا الى الكولونيل الذى لا يفقه تلك العواطف . وقال الكولونيل :

ـ الحقيقة يا اشندن أنه أخطر متآمر ضدنا داخل الهند وخارجها على السواء . وقد أوقع بنا من الخسائر اكثر مما اوقعه سائر الهنود مجتمعين . فانت تعلم أن هناك عصبة كبيرة من هؤلاء الهنود العصاة فى برلين . ولكن هذا الرجل هو العصب المحرك لهم جميعا . فان استطعنا ان نخرجه من الميدان لم تعد لهم ادنى اهمية لانه الوحيد من بينهم الذى اوتى الذكاء . ولى الآن اكثر من سنة وانا احاول الايقاع به . ولكن كنت ايأس من امكان ذلك . الى أن لاحت لى الفرصة اخيرا . وسوف انتهزها واقبض عليه

ـ وماذا عساك تصنع به ؟

فضحك الكولونيل وقال :

ـ اطلق عليه الرصاص بلا امهال !

ولم يجب اشندن . ونهض الكولونيل فجعل يذرع الحجرة مرة او مرتين ثم وقف وظهره الى المدفأة وواجه أشندن وعلى شفتيه النحيفتين ابتسامة ساخرة . وقال :

ـ هل لاحظت ما جاء فى ختام التقرير الذى اطلعتك عليه من انه ليست له علاقات نسائية ؟

ـ نعم

ـ كان هذا صحيحا . ولكنه الآن غير صحيح . لقد وقع المغفل فى الحب الى اذنيه !

واتجه الكولونيل الى حافظة الاوراق الموضوعة فوق المنضدة واخرج منها حزمة مربوطة بشريط ازرق باهته من الحرير ، وقال :

ـ انظر ! هاهى ذى خطاباته الغرامية . وانت رجل تؤلف روايات . وقد يروق لك ان تطالعها . بل إنك فى الواقع لابد أن تطالعها لانها ستساعدك على معالجة الموقف . فخذ هذه الخطابات معك . وان الانسان ليعجب كيف يسمح رجل قدير ، مثل شندرالال ، لنفسه بالتدله فى حب امرأة . انها آخر ماكنت اتوقعه من تصرفاته

فرمق اشندن عندئذ الورد الموضوع فى الزهرية فوق المنضدة ولم

يقل شيئا . ولم تفت هذه النظرة عين الكولونيل الفاحصة فقطب وجهه ولكنه لم يقل شيئا . وعاد الى الموضوع :

ــ ليس من شأننا على كل حال أن نعلق على أفعاله . المهم أن شندرالال يحب امرأة تسمى جوليا لازارى الى درجة الجنون

ــ وهل تعلم كيف تعرف بها ؟

ــ طبعا أعرف كيف تعرف بها ! انها راقصة . تخصصت فى الرقص الاسبانى ولكنها ايطالية الجنسية . وقد اتخذت اسما فنيا لها هو « لاملاجونيا » . ولعلك تعلم ذلك النوع من الرقص على موسيقى اسبانية شعبية مع استعمال حرملة المصارعين الحمراء ومروحة ومشط عال . وقد ظلت ترقص في أرجاء اوروبا طيلة السنوات العشر الماضية

ــ وما مستواها ؟

ــ سيىء جدا . كانت تعمل فى انجلترا بملاهى الاقاليم ، ثم عملت بعض الوقت فى لندن ولم يزد اجرها على عشرة جنيهات فى الاسبوع . ولقد التقى بها شندرالال فى برلين حينما كانت تعمل فى احد الملاهى الرخيصة هناك . واعتقد انها في جولاتها الاوروبية كانت تعتبر قيامها بالرقص مجرد وسيلة لرفع قيمتها وأجرها كمومس

ــ ولكن كيف وصلت الى برلين فى زمن الحرب ؟

ــ كانت متزوجة فى وقت ما من اسبانى . واعتقد انها لم تزل معه ولكنهما لايعيشان معا . فكانت تنتقل بجواز سفر اسبانى يسمح لها بدخول دول المحور . ويبدو أن شندرالال وقع فى هواها من اول وهلة

وتمعن الكولونيل فى الصورة الفوتوغرافية قليلاً ثم استطرد :

ــ ما كان الانسان ليعتقد ان هناك اية جاذبية خاصة لذلك الزنجى الدهنى التكوين . يا الهى ! ما اشد قابليتهم للبدانة ! ولكن مما لاشك فيه أن الفتاة أحبته مثلما احبها . فتحت يدى صور خطاباتها اليه . اما الخطابات الاصلية فتحت يده . وانا واثق انه يحتفظ بها مربوطة بشريط قرمزى ، انها مجنونة به . وانا لست من رجال الادب . ولكن اظننى اعرف رنة الصدق . وانت ستطالع هذه الخطابات على كل حال وتخبرنى برايك فيها . ومن العجب أن

الناس يقولون أنه لا وجود لشيء اسمه الحب من أول نظرة

وابتسم الكولونيل فى تهكم يسير . فقد كان بغير شك معتدل المزاج هذا الصباح ... وساله اشندن :

ــ وكيف حصلت على كل هذه الخطابات الخصوصية ؟

ــ كيف حصلت عليها ؟ انها ايطالية المولد ، ولذلك كانت تطرد بين حين وحين من المانيا الى الحدود الهولندية . ولما كانت لديها عقود للرقص فى انجلترا فقد سمحنا لها بدخول بريطانيا . وعلى هذا الاساس ابحرت فى ٢٤ أكتوبر الماضى من روتردام الى هارويتش ورقصت فى ملاهى لندن وبرمنجهام وبورتسموث وغيرها . ثم قبض عليها منذ اسبوعين فى مدينة هل

ــ وما السبب ؟

ــ الجاسوسية . ثم نقلت من هل الى لندن وقد توجهت بنفسى فقابلتها فى سجن هولوواى

وتبادل اشندن والكولونيل النظرات برهة من غير أن يتكلما . ولعل كلا منهما كان يحاول بكل جهده ان يقرأ أفكار الآخر . وكان اشندن يتساءل عن مدى الصدق فى كلمات الكولونيل . ولذا سأله :

ــ ولكن كيف توصلتم الى كشف حقيقتها ؟

ــ لقد تراءى لى أنه من الغريب حقا أن يسمح لها الالمان بالرقص فى أمان مدة اسابيع متوالية فى برلين ، ثم فجاة ومن غير سبب ظاهر يقررون اخراجها من البلاد . ان ذلك يبدو تمهيدا جيدا لقيامها بالتجسس . ولا سيما لان الراقصة التى لاتحرص كثيرا على عفتها يمكن أن تصل اليها معلومات ثمينة تدفع برلين فيها ثمنا عاليا . فلما طلبت الاذن بدخول انجلترا رأيت أن اسمح لها بالحضور كى تبين ماذا وراءها بالضبط . وابقيت عينى عليها ، فاكتشفت انها كانت ترسل خطاباتها الى عنوان ما فى هولندا مرتين أو ثلاثا كل اسبوع . ومرتين أو ثلاثا كل اسبوع كانت تتلقى ردودا من هولندا وكانت رسائلها مكتوبة بخليط عجيب من الفرنسية والالمانية والانجليزية . فهى تتكلم الانجليزية بصعوبة وعلى قلة . ولكنها تتكلم الفرنسية بطلاقة . أما الردود فكانت مكتوبة كلها بالانجليزية . وبانجليزية متينة التركيب . ولكنها ليست انجليزية رجل انجليزى

فهى ذات اسلوب زخرفى يميل للجزالة والفخامة . فكنت اتساءل من عساه يكون كاتب هذه الخطابات . وكانت الخطابات فى مظهرها رسائل غرام عادية ولكنها من النوع الشديد السخونة . وكان واضحا جدا انها مرسلة من المانيا ، وأن الكاتب ليس انجليزيا ولا فرنسيا ولا المانيا . فلماذا اذن يكتب بهذه الانجليزية ؟ أن الاجانب الوحيدين الذين يعرفون الانجليزية خيرا من معرفتهم لاى لغة اوروبية أخرى هم المشارقة وخاصة الهنود . وهكذا خلصت الى أن حبيب جوليا أحد أفراد العصابة الهندية التى تدبر الشغب فى برلين . ولم يخطر ببالى انه شندرالال بنفسه الا عندما عثرت على الصورة الفوتوغرافية

ـ وكيف حصلت على هذه الصوره ؟

ـ كانت تحملها معها اينما ذهبت ، وتحتفظ بها فى حقيبتها المغلقة مع مجموعة كبيرة من الصور المسرحيـة لمغنين ومهرجين ولاعبى السرك . فكان من الممكن جدا أن يظن الناظر ان تلك الصورة لاحد الفنانين فى ثياب التمثيل . والواقع أننا عندما قبضنا عليها فيما بعد وسألناها عن صاحب الصورة قالت انها لا تعرفه ، وإنه عراف هندى أعطاها اياها وليست لديها اية فكرة عن اسمه . وكنت قد ندبت لهذه المهمة فتى أريبا فطنا . وقع لديه موقع الغرابة ان تكون هذه هى الصورة الوحيدة فى المجموعة التى صنعت فى كلكتا . ووجد على ظهرها رقما فاخذ الرقم فى مفكرته وأعاد الصورة الى الحقيبة كما كانت

ـ ولكن كيف استطاع فتاك الاريب أن تصل يده الى الصورة ؟

فومضت عينا الكولونيل وقال :

ـ ليس هذا من شانك . ولكنى لا ارى مانعا من التصريح لك بانه كان فتى وسيما عقد معها صلة غرامية ، واخذت تطلعه على تذكاراتها . والمهم اننا عندما حصلنا على رقم الصورة ابرقنا الى كلكتا فجاءنا الرد بأن عشيق جوليا هو شندرالال الذى كنا نظنه نقى الصفحة . وبعدها شددت الرقابة على جوليا ، فلاحظت انها تبدى ميلا خاصا لفئة ضباط البحرية . وانا شخصيا لا الومها على ذلك لان ضباط البحرية فيهم جاذبية . ولكن ليس من الحكمة ان نترك ذوات العفة الجريحة والجنسية المريبة يختلطن بهم كثيرا فى زمن

الحرب . وفى زمن وجيز جمعت أدلة كثيرة ضدها

ـ وكيف كانت توصل معلوماتها الى الاعداء ؟

ـ لم تكن توصل معلوماتها الى الاعداء . ولم تحاول ذلك . لم تكن جاسوسة فالالمان طردوها من بلادهم فعلا . ولكنها كانت تعمل لحساب شندرالال شخصيا . وقد رتبت أمرها بعد انتهاء عقد عملها فى انجلترا ان تعود الى هولندا لنلتقى به هناك ، وتفضى اليه بكل ما جمعته من المعلومات . ولكنها لم تكن بارعة فى عملها ، بل كانت عصبية . ولكن طبيعة مهنتها أتاحت لها جمع معلومات قيمة . وفى احدى رسائلها الى شندرالال قالت له بخليطها اللغوى العجيب « ادى الكثير لافضي به اليك ياحبيبى الصغير . مما يهمك كثيراً أن تعرفه » وكانت هذه الجملة الاخيرة بالفرنسية وقد وضعت تحتها خطا

وسكت الكولونيل قليلا وجعل يفرك يديه . وكان وجهه المجهد قد ارتسمت عليه امارات سرور شيطانى بدهائه ، ثم استطرد :

ـ وبطبيعة الحال لم يكن يهمنى امر تجسسها فى قليل أو كثير لان همى كله كان موجها الى شندرالال . فبمجرد القاء القبض عليها دبرت من القرائن ما يكفى لاعدام فرقة كاملة من الجواسيس

ووضع الكولونيل يديه فى جيوبه وارتسمت على شفتيه ابتسامة كالحة ، وهو نقول لى :

ـ وسجن هولوواى ليس جنة الفردوس كما تعلم

ـ لا اظن أى سجن يمكن ان يكون جنة الفردوس !

ـ ولا سيما هذا السجن بالذات . وقد أعطيت التعليمات اللازمة وتركتها الى أن « نضجت » مدة اسبوع ، قبل ان ابعث فى طلبها فوجدتها فى حالة عصبية متداعية . واخبرتنى السجانة انها أصيبت بنوبات هستيرية عنيفة معظم الوقت . فلا عجب أن بدت كالشبح

ـ أهى جميلة ؟

ـ ستراها بنفسك . وهى على كل حال ليست من النوع الذى يروق لى شخصيا . واظنها تكون أجمل منظرا عندما تتم زينتها وتضع المساحيق على وجهها . وقد خاطبتها بكل قسوة وانزلت بها الرعب الجهنمى . وهى بطبيعة الحال نفته كل شيء . ولكن الادلة

كانت تحت يدى . وقد أفهمتها جيدا انه لا نجاة لهــا من العقوبة الصارمة . وقضيت معهــا ثلاث ســاعات انتهت بانهيارها أمامى فاعترفت بكل شىء . وعندئذ وعدتها باخلاء سبيلها اذا استدرجت شندرالال الى الاراضى الفرنسية . فرفضت على الفور رفضــا باتا ، وقالت أنها تفضل الموت على ذلك . وتشنجت اعصابها فتركتها تهرف ، ثم قلت لها انى سأتركها لتخلو الى نفسها وتفكر فى اقتراحى مدة يومين . ولكنى تعمدت أن اتركها أسبوعا بأكمله . فلما دعوتها لمقابلتى ، وجدتها مستعدة لتنفيذ ما طلبته منها بغير مناقشــة . فأفهمتها كل شىء بغاية الوضوح ، وقبلت بلا معارضة

ــ لم افهم بالضبط ما ترمى اليه

ــ حقا ؟ اظن المسألة من أوضح ما يكون لاقل الناس ذكاء . فلو انها استطاعت أن تستدرج شندرالال كى يعبر الحدود السويسرية الى فرنسا فانى سأطلق سراحها واوصلها بأمان الى حدود اسبانيا او الى أمريكا الجنوبية على حسابنا الخاص

ــ ولــكن كيف بحق الشيطان يمــكن أن تستدرج شــندرالال للحضور ؟

ــ انه مجنون بحبها ، وفى اشد الشوق للقائها . وخطاباته اليها كما ترى تنم عن شغف جنونى . وقد جعلتها تكتب اليه قائلة انه تعذر عليها الحصول على تأشيرة دخول الى هولندا ، حيث كان مقررا ان تقابله . ولكنها تستطيع الحصول على تأشيرة دخول الى سويسرا . وسويسرا بلد محايد يستطيع أن يأمن فيه على نفسه . وقد تلقف هذه الفرصة وارسل يعدها باللقاء فى لوزان

ــ وبعد ؟

ــ وعندما يصل الى لوزان سيجد خطابا منها تبغه أن السلطات الفرنسية رفضت أن تسمح لها باجتياز الحــدود السويسرية . وانها لهذا السبب قررت التوجه الى تونون وهى البلدة الفرنسية التى تقابل لوران على شاطىء البحيرة . وبينهما خط مواصــلات بالزوارق البخارية كما تعلم . وتطلب منه أن يوافيهــا هناك فى تونون

ــ وما الذى يحدو بك الى الاعتقاد بانه سيلبى رغبتها ؟

فسكت الكولونيل برهة ثم نظر الى اشندن باسما ، وقال .

يجب أن تحمله على الحضور الى هناك اذا كانت راغبة حقا فى الافلات من عقوبة الاشغال الشاقة المؤبدة

ـ فهمت !

ـ انها ستصل من انجلترا هذا المساء تحت الحراسة وأريد منك أن تصحبها الى بلدة تونون فى قطار الليل

فصاح أشندن قائلا :

ـ انا ؟

ـ نعم انت . لانى اظن هـذا العمل من الاعمال التى تصلح لها جدا . فالمفروض انك روائى ، ولهذا تعرف عن الطبيعة البشرية أكثر مما يعرف اكثرية الناس . وسيكون من الممتع لك أن تقضى اسبوعا او اسبوعين فى تونون . فهى مكان صغير جميل ومن الاماكن السياحية الراقية فى زمن السلم . وتستطيع أن تستمتع هنـاك بالاستحمام ؟

فقاطعه اشندن قائلا :

ـ وماذا تريد منى ان أصنع عندما اصل مع هذه السيدة الى تونون ، فيما عدا الاستحمام طبعا ؟

ـ انى اترك يدك مطلقة فى التصرف . وكل ما هناك انى سجلت بضع ملاحظات قد تكون ذات فائدة لك فى مهمتك . فهل أتلوها عليك ؟

واصغى أشندن بانتباه شديد . وكانت خطة الكولونيل سهلة واضحة . فلم يسع أشندن سوى الشعور مرغما بالاعجاب بالعقل الماكر الذى دبر هذا التدبير المحكم

وبعد الانتهاء من التلاوة اقترح الكولونيل ان يخرجا معا لتناول الغداء . وطلب من أشندن أن يأخذه الى مـكان يستـطيعان فيه مشاهدة البارزين فى الهيئة الاجتماعية

وراق لأشندن ان يرى الكولونيل الصارم الحازم فى عمله ، يبدو مرتبكا خجولا فى المطعم الفاخر . ثم يتكلم بصوت أعلى مما ينبغى قليلا ، ليحاول الظهور بمظهر من هو على سجيته

ان حركاته كشفت لأشندن مدى الحياة الضيقة المتواضعة التى

عاشها الكولونيل الى أن رفعته مقدرات الحرب الى هـذه المكانة الخطيرة . وبدا عليه السرور العميق لوجوده فى ذلك المطعم الانيق ملاصقا لأصحاب المجد ، واصحاب الاسماء الشهيرة فى العاصـمة الفرنسية . ولكنه كان كالتلميـذ المراهق فى أول بنطلون طويل يرتديه . واغضى أمام عيسى كبير السقاة البراقتين ، وراحت نظراته تجوب ارجاء المطعم بعد ذلك فى اغتباط وزهو لا يخلو من خجل يسير

واسترعى اشندن انتباهه الى امراة قبيحة ترتدى ثوبا اسـود ولكنها ذات قوام جميل وتزين نحرها بعقد طويل من اللآلىء ، وقال له :

ـ هذه مدام دبريد . عشيقة الغراندوق تيودور . ولعلهـا من أعظم النسـاء نفوذا فى أوروبا . وهى يقينا من ادهاهن

ونظر اليها الكولونيل قليلا ثم احمر وجهه وقال :

ـ هذه هى الحياة وايم الحق !

ورمقه اشندن صامتا . فالترف شيء خطير التأثير على من لم يألفوه . ان اغراءه شديد على من يفاجأون به . فهاهو ذا الكولونيل الحصيف الداهية وقد سلب لبه هذا المنظر البراق الذى امامه

وبعد أن فرغا من تناول غدائهما ، وشرعا شربان القهوة وقد ارتسمت علامات الرضا التام على وجه الكولونيل ، عاد اشندن الى الموضوع :

ـ هذا الهندى لابد انه شخصية ممتازة ؟

ـ انه ذكى العقل طبعا

ـ ان الانسان لايمكن أن يخلو من الاعجاب برجل استطاع ان يناصب فى شجاعة وبمفرده تقريبا السلطة البريطانية فى الهند

فقال الكولونيل بلهجة قاطعة :

ـ لو كنت فى مكانك ما أضفيت عليه شيئا من عواطفى . فهو فى الواقع ليس سوى مجرم خطير . انه كان يستخدم القنـابل الزمنية فى ارهاق أرواح بريئة

فقال اشندن :

ـ لا أظن انه كان يعمد الى اسـتخدام القنابل الزمنية أو غير

الزمنية لو كان تحت يده بضعة الوية . ان الرجل يستخدم الاسلحة التي تتاح له . ولا اخالك تعيب عليه ذلك ، ولاسيما أنه بعد كل حساب لايرمى الى هدف شخصي . اليس كذلك ؟ انه يرمي الى تحرير وطنه . وكل جريرته اننا نحمل ذلك الوطن . فكل شيء يدل على أن له في تصرفاته نحونا ما يبررها تبريرا قويا

وكانما كان اشندن يتكلم لغة صينية ! فقد قال الكولونيل :

ــ هذا تخريج فيه تعسف شديد للامور . وهذه على كل حال موضوعات لانستطيع أن نخوض فيها . ومهمتنا أن نضع يدنا عليه . ومتى تم لنا ذلك نقتله رميا بالرصاص

فلم يسع اشندن الا ان يقول :

ــ طبعا طبعا . لقد أعلن علينا الحرب ويجب أن يتحمل تبعة ذلك . وانا من جهتي سانفذ تعليماتك بدقة . هـذا هو واجبي . ولكني لا ارى مانعا مع ذلك من الاعجاب بالرجل واحترامه

فنظر الكولونيل الى اشـندن وقد عادت اليه صرامته وحزمه وقال :

ــ لست واثقا أيهما أصلح لهذا الطراز من المهام . اهو الرجل الذي ينفعل بما يمارسـه من عمل ، أم الذي لاتتحـرك عواطفه بشيء . وهناك من يشفي غليلهم الايقاع بأحد أعداء الوطن ، كأنها خدمة شخصية اديت لهم أو ثأر شخصي اخذوه . ومثل هؤلاء يؤدون عملهم بحماسة ، أما انت فالمسـألة في نظرك لاتعدو لعبة رياضية ، أو مباراة شطرنج من غير حقد على الاعداء والخصوم . بل ومع الاعجاب بهم أحيانا . ولكن طرازك يصلح لمهام معينة اكثر من سواها

ولم يجب اشـندن ، ودفع حساب الغـداء ثم أقفل راجعا مع الكولونيل الى الفندق

الفصل الثامن

جوليا

كان موعد انطلاق القطار فى الساعة الثامنة . فلما فرغ اشندن من ترتيب حقائبه أخذ يذرع افريز المحطة . ووجد جوليا لازارى فى احدى عربات القطار . ولكنها كانت جالسة فى ركن مشيحة عن مسقط الضوء فلم يستطع ان يتبين وجهها . وكانت فى حراسة اثنين من رجال البوليس السرى الفرنسى ، تسلماها من رجال البوليس الانجليزى فى بولونيا ، وكان أحد الشرطيين قد عمل مع اشندن فى منطقة الحدود الفرنسية المشرفة علي بحيرة جنيف . فاومأ لاشندن بالتحية ثم قال

ـــ سألت السيدة ان كانت تحب ان تتناول العشاء فى عربة الطعام ولكنها فضلت أن تتناوله هنا ولهذا طلبت من عربة الطعام اعداد سلة للعشاء . فهل هذا الاجراء صائب ؟

ـــ نعم

ـــ وسنتناوب انا وزميلى الذهاب الى عربة الطعام بحيث لانبقى السيدة وحدها ...

ـــ أحسنت . وسأحضر من عربتى بعد قيام القطار لاجاذبها أطراف الحديث قليلا

فقال المخبر :

ـــ انها ليست مستعدة تماما للانطلاق فى الكلام

ـــ لست اتوقع منها ذلك الاستعداد

وانصرف اشندن فتناول طعامه . وكانت جوليا لازارى تختم طعامها عندما عاد اليها . وبنظرة خاطفة الى سلة الطعام ادرك أن شهيتها للطعام لم تكن ضئيلة للغاية . وأومأ اشندن الى المخبر

الذى فتح الباب فتركهما وحدهما

ورمقته جوليا بنظرة شذراء . فقال وهو يجلس قبالتها :

ـ أرجو أن يكونوا قد أحضروا لك كل ماطلبته من ألوان الطعام ؟

فأحنت رأسها ولم تتكلم . فأخرج علبة سجائره وقال لها :

ـ الك فى سيجارة ؟

فالقت عليه نظرة ثم ظهر عليها التردد ، وبعد ذلك تناولت سيجارة من غير أن تنطق بكلمة . وأشعل اشندن عود ثقاب فأوقد سيجارتها ، وانتهز الفرصة لينظر الى وجهها فى ضوء الثقاب . واستولت عليه الدهشة . فهو لسبب ما كان يتوقع أن يجدها شقراء . ولعل ذلك لاعتقاد سابق لديه أن المشارقة أحرى أن تستهويهن الشقراوات . ولكنها سمراء داكنة تقريبا . وشعرها تخفيه قبعة ضيقة ، ولكن عينيها سوداوان كأنهما قطعتان من الفحم الحجرى . ولم تكن صغيرة السن . فلعلها كانت فى الخامسة والثلاثين . وبشرتها كثيرة الغضون كالحة . كما كان وجهها خاليا تماما من المساحيق ، فبدت فى منظر متهدم ، ولم يكن فى مرآها شيء جميل سوى عينيها الرائعتين

وكان جسمها ضخما بحيث ظن اشندن أنها لايمكن أن تؤدى بهذا الجسم رقصاتها فى رشاقة . ولاسيما اذا ارتدت ثياب الرقص الاسبانية . ولكن لعل أضواء المسرح ، وثياب الرقص الزاهية ، تضفى عليها شيئا من الفتنة . أما وهى على هذه الحالة فى القطار ، فلايمكن أن يتصور المرء سر هيام ذلك الثائر الهندى بها ...

وعلى ضوء الثقاب رمقت اشندن بنظرة تحاول بها سبر غوره . فهى بغير شك كانت تتساءل فيما بينها وبين نفسها أى طراز من الرجال عساه يكون

ونفثت سحابة من الدخان من انفها ، واخذت تتابع تلك السحابة بنظراتها برهة ، ثم ردت بصرها الى اشندن . واستطاع أن يفطن الى أن هدوءها ليس الا قناعا . وانها فى الواقع كانت متوترة الاعصاب مرتاعة . وكانت تتكلم الفرنسية بلهجة ايطالية . قالت :

ـ من أنت ؟

ـ اسمى لايعنى شيئا بالنسبة لك ياسيدتى . حسبك أن تعلمى

انني ذاهب الى تونون . وقد حجزت لك غرفه فى فندق لابلاس . وهو الفندق الوحيد الذى يفتح أبوابه هناك فى هذا الفصل من السنة . واعتقد أنك ستجدين الاقامه فيه مريحة

ــ آه ! انت اذن الذى حدثني الكولونيل عنك . أنت سجاني

ــ من الناحية الشكلية فقط ، ولن أتطفل عليك

ــ انت سجاني على كل حال ...

ــ وارجو على كل حال الا يدوم ذلك مدة طويلة . فانى احمل فى جيبى جواز سفرك وقد استكملت فيه جميع الاجراءات الشكلية والرسمية للسماح لك بالسفر الى أسبانيا

فالقت بنفسها الى ركن العربة ، وظهر على وجهها الشاحب وعينيها السوداوين الكبيرتين منتهى اليأس ، ثم قالت :

ــ هذا شيء فظيع . واظنني كنت اموت سعيدة لو انني استطعت أن اقتل ذلك الكولونيل العجوز . انه رجل بلا قلب . ما اشقاني

ــ اخشى ان تكوني قد اوقعت نفسك فى مأزق شديد الحرج . ألم تكونى تعلمين ان الجاسوسية لعبة خطرة ؟

ــ اني لم ابع اى سر من اسراركم . لم ارتكب سوءا

ــ وذلك يقينا لانه لم تتح لك الفرصة . وانت فيما فهمت قد وقعت على اعتراف كامل مفصل

وكان أشندن يتحدث اليها بأرق مايستطيع من عبارة ، وكأنه الى حد ما يتحدث الى شخص مريض . فلم تكن فى صوته أدنى خشونة

ــ أجل كنت مغفلة الى حد كبير فكتبت الخطاب الذى حملنى الكولونيل على كتابته . فلماذا لا يكتفي بذلك ؟ ما الذى يحدث لى أن لم يجب ؟ أنا لا استطيع أن اكرهه على الحضور ان كان لايريد أن يحضر

فقال لها اشندن :

ــ لقد وصل رده بالفعل . وأنا احمله معى

فاحتفلت واضطرب صوتها وقالت :

ــ أوه . أرني جوابه . أتوسل اليك أن تدعني اطلع عليه

ــ ليس عندى مانع من ذلك . ولكن يجب أن تعيديه الى بعد تلاوته

ـ أعدك بذلك

وأخرج خطاب شندرالال من جيبه واعطاها اياه . فاختطفته من يده اختطافا والتهمته بعينيها . وكان ثمانى صفحات . واخذت الدموع وهى تقرأ تنهمر على وجنتيها . وفيما بين شـــهقاتها وزفراتها كانت تنمم بعبارات الحب ، وتنادى الكاتب بأعذب اسماء التدله والتحبب بالفرنسية والايطالية .وكان ذلك الخطــاب هو الذى كتبه شندرالال ، ردا على خطابها الذى قالت له فيه بناء على تعليمات الكولونيل انها ستقابله فى سويسرا . فكاد يجن من الفرح بتلك الفرصة . وعبر لها فى صفحات خطابه الملتهبة عن بطء الوقت وطوله عليه منذ افترقا ، وكيف كان يصبو اليها ، ويتحرق شوقا الى رؤياها . والآن وقد تقرر أن يلتقى بها مرة أخرى قريبا فهو لايدرى كيف سيتسنى له أن يتحمل الانتظار وقد عيل صبره

وما أن اتمت تلاوة الخطاب حتى انفرجت أصابعها فسقط على الارض ، وقالت فى يأس شديد :

ـ هانتذا ترى كم يحبنى . ألست ترى ذلك ؟ ما من شــك فى هذا . صدقنى فأنا ذات خبرة فى هذا الامر

وعندئذ سألها أشندن :

ـ وانت ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ وانت هل تحبينه حقا ؟

ـ انه الرجل الوحيد الذى كان عطوفا على . وليست الحيــاة التى يحياها من يعملون فى الملاهى بالحيــاة المرحة المربحة . فهم يتنقلون فى جميع ارجاء اوروبا ، ولايســتقرون أبدا . والرجال الذين يترددون على تلك الاماكن ليسوا دائما من ذوى الرجولة . ولذا ظننت فى البداية أنه رجل كالآخرين من الرواد . . .

والتقط أشندن الخطاب من على الارض ووضعه فى جيبه ثم قال لها :

ـ لقد ارسلنا باسمك برقية الى العنوان المتفق عليه فى هولندا ، نخبره أنك ستكونين فى فندق جيبونز بمدينــة لوزان فى اليوم الرابع عشر

فقالت جوليا بدهشة :
ــ يعنى غدا
ــ بالضبط
فرفعت راسها ولمعت عيناها وقالت :
ــ ما اقبح هذا الذى ترغموننى على فعله ارغاما . انه لشائن
ــ ما من احد يرغمك على فعله
ــ واذا لم افعل ؟
فقال اشندن بهدوء تام :
ــ اخشى ما اخشاه انك ستضطرين لتحمل نتيجة ذلك
فصرخت :
ــ يعنى السجن ؟
ــ بالتاكيد
فاشتد صراخها :
ــ لا استطيع أن أذهب الى السجن . لا استطيع . لا استطيع . غير معقول ان اقضى كل تلك السنوات فى الاشغال الشاقة
ــ اذا كان الكولونيل قال لك انك ستعاقبين بالاشغال الشاقة فثقى أن ذلك صحيح . انه امر غير مستحيل الحدوث
ــ أنا اعرفه . أعرف هذا الوجه الذى ينطق بالقسوة . ان مثله لا يعرف الرحمة . واذا خرجت بعد سنوات من السجن مع الاشغال الشاقة ماذا يكون مصيرى ؟ ماذا يكون قد بقى منى ؟ كلا كلا

وفى هذه اللحظة وقف القطار فى احدى المحطات ونقر على زجاج الباب المخبر المنتظر فى الدهليز ، ففتح اشندن الباب فاعطاه الرجل بطاقة بريد من النوع المصور . وكانت الصورة تمثل منظرا سخيفا لمحطة بونترابيه على الحدود الفرنسية السويسرية . وقدم اليها اشندن قلم رصاص قائلا :
ــ اكتبى هذه البطاقة الى حبيبك ، وسنرسلها من مكتب بريد بونترلييه . واجعلى العنوان على الفندق فى لوزان

فرمقته جوليا بنظرة قاسية ، ولكنها لم تتكلم وتناولت القلم وكتبت ما املاه عليها . وختم الاملاء :

« لقد تأخرت على الحدود . ولكن اطمئن وانتظرني في لوزان »

ثم تناول منهـا بطاقة البريد وقراها ليطمئن على أنهـا كتبت ما أملاه عليها حقا ، ثم تناول قبعته وقال :

ــ والآن اتركك . وارجو أن تستطيعى النوم . وسـاحضر فى الصباح لأصحبك عندما نصل الى تونون

وكان المخبر الآخر قد عاد من تناول طعامه فلما خرج أشـندن من العربة دخل الرجلان وانزوت جوليا فى ركنها . واعطى أشندن بطاقة البريد الى رسول كان ينتظر كى يحملهـا الى بونسرلييه ، واتجه اشندن على الاثر نحو عربة نومه

وكان الصباح مشمسا صحوا رغم برودة الجو عندما وصلوا الى وجهتهم وسلم اشندن حقائبه الى حمال وسار فوق الافريز الى حيث كانت جوليا لازارى واقفة بين المخبرين . وأومأ اشندن اليهما براسه :

ــ طاب صباحكما . لاحاجة بكما الى الانتظار بعد

فرفعا قبعتيهما وودعا المراة وانصرفا . فسألته :

ــ الى اين هما ذاهبان ؟

ــ الى غير رجعة . سوف لايضايقانك بعد الآن

ــ هل انا فى حراستك اذن ؟

ــ لست فى حراسـة احد . كل ماهنالك انى سـاسمح لنفسى بمرافقتك الى فندقك ثم أتركك . لانه عليك أن تحاولى الحصول على قسط من الراحة

وحمل اشندن حقائبها ثم خرج الاثنـان من المحطة . وكانت هناك عربة فى انتظارهما ، فطلب منها اشندن بكل أدب ان تركبها . وكانت الرحلة الى الفندق طويلة شيئا ما . وبين الحين والحين كان يشعر بانها ترمقه بنظرة جانبية ، رغم أنها كانت بادية الحيرة

أما اشندن فجلس صامتا لاينطق بكلمة . ولما وصلا الى الفندق الصغير القائم وسـط منظر بديع للغابة ، صـحبهما المدير الى الحجرة التى أعدت لنزول مدام لازارى . فقال له اشندن بعد أن تفقدها :

ــ انها على مايرام . سانزل بعد دقيقة

فانحنى مدير الفندق وانسحب وتركهما وحدهما . وعندئذ قال أشندن :

ـــ سابذل كل ماق وسعى لتوفير أسباب الراحة لك ياسيدتى . وثقى أنك هنا سيده نفسك ، ومن حقك ان تطلبى اى شىء تصبو نفسك اليه . وانت فى نظر مدير الفندق نزيلة كأى نزيل آخر فى الفندق . انت حرة تمام الحرية

فسألته بسرعة :

ـــ وحرة ايضا فى الخروج ؟

ـــ طبعا . لك ان تخرجى كما تشائين

فقالت متهكمة :

ـــ وعلى كل جانب من جانبى شرطى فيما اعتقد !

ـــ كلا . انك حرة الحركات فى هذا الفندق كانك فى منزلك تماما . وحرة فى الخروج من الفندق والعودة اليه كلما راق لك ذلك . واحب أن احصل منك على تأكيد بأنك لن تكتبى خطابات بغير علمى . ولا ان تحاولى مغادرة تونون من غير اذنى

فرمقت اشندن بنظرة طويلة ولم تستطع أن تسبر غوره ولا أن تفهم سر هذا التيسير ، وبدا عليها كأنها فى حلم ، ثم قالت :

ـــ انى فى موقف يرغمنى على تقديم جميع التأكيدات التى تطلبها منى . ولذا أعدك وعد الشرف أنى لن أكتب خطابا من غير ان اطلعك عليه ، ولن احاول مغادرة هذه البلدة

ـــ شكرا لك . والآن ساتركك . وسوف يسعدنى أن آتى لزيارتك غدا صباحا . طاب يومك

وأحنى اشندن راسه ثم انصرف . ومر بمركز الشرطة فقضى فيه خمس دقائق ليتاكد من ان جميع الترتيبات على مايرام ثم استقل العربة ، وصعد التل الى بيت منعزل عند مشارف البلدة كان ينزل فيه كلما جاء اليها فى زيارته الدورية

وطاب له أن يستحم ويحلق ذقنه ، ويريح قدميه فى الخف الرخو وشعر برغبة فى الاسترخاء فقضى بقية الصباح يطالع قصة

وفى جنح الظلام جاءه شرطى من مركز الشرطة اسمه فليكس وكان قدومه فى الليل بسبب الرغبة فى عدم لفت الانظار الى أشندن

حتى وهو فى الاراضى الفرنسية . وكان فلبكس فونسيا قصير القامة أسمر اللون ؛ له عينان ثاقبتان وذقن غير حليق ، ويرتدى بذلة رمادية اللون بعيدة عن الاناقة والحذ ، فكان مظهره اشبه بكاتب محام معطل

وقدم اشتندن الى هذا الجندى كاسا من السيد وجلس الاثنان بجوار نار المدفاة . ثم قال فلبكس :

ــ ان تلك السيدة لم تضيع وقتها سدى . فبعد وصولها الى الفندق بربع ساعة غادرته ومعها حرمه من الثياب والحلى الرخيصة فباعتها فى دكان قريب من سوق البلده . ولما وصل الزورق بعد الظهر الى الميناء ذهبت الى الرصيف وابتاعت تذكرة الى ايفيان

وايفيان هى المكان التالى لتونون فى الاراضى الفرنسية على شاطىء بحيرة لوزان . ومن هنـــاك يعبر الزورق البحيرة الى الاراضى السويسرية

واسطرد فليكس :

ــ ولما كانت بطبيعة الحال لا تحمل جواز سفر لم يسمحوا لهـا بركوب الزورق

ــ ولكن كيف فسرت عدم حصولها على جواز سفر ؟

ــ قالت أنها نسيته . وقالت أنها على موعد لمقابلة أصدقاء لهـا فى ايفيان . وحاولت أن تقنع الموظف المختص بتركها تسافر . بل وحاولت أيضا أن تدس فى راحة يده مائة فرنك

فقال أشندن :

ــ لابد أنها أغبى مما كنت اتصور

□

ولما توجه فى اليوم التالى فى نحو الساعة الحادية عشرة صباحا لمقابلتها لم يشر من قريب أو بعيد الى محاولتها الفرار . وكانت الفرصة قد أتيحت لها كى تنسق مظهرها فوجد شعرها مرجلا ترجيلا تاما بعناية فائقة . وقد طلت شفتيها وخديها ، وبدت احسن مظهرا بكثير مما رآها لاول مرة

وقال لها أشندن :

ــ لقد احضرت اليك بضعة كتب

ـ لماذا ؟

ـ اخشى أن يكون الوقت بطيئا ثقيل الوطأة عليك

ـ وماذا يضيرك من ذلك ؟

ـ لست لدى رغبة على الاطلاق فى ان تعانى أى نوع من الالم استطيع تجنيبك اياه . وسأترك لك هذه الكتب على كل حال وفى استطاعتك ان تقرئيها أو لا تقرئيها على حسب ما يتراءى لك

ـ آه لو علمت كم كرهتك !

ـ ان هذا طبعا لا يسعدنى . ولكنى فى الحقيقة لا أرى مبررا لحقدك على . فأنا أؤدى الواجب المفروض على وانفذ الاوامر ليس الا

فسألته باقتضاب :

ـ ماذا تريد منى الآن ؟ فلا اخالك جشمت نفسك الحضور لكى تطمئن على صحتى فحسب !

فابتسم اشندن وقال :

ـ اريد منك ان تكتبى خطابا الى حبيبك تقولين فيه ، أنه بسبب نقص بعض الاجراءات الشكلية فى جواز سفرك رفضت السلطات السويسرية ان تسمح لك باجتياز الحدود ، ولهذا جئت الى هنا حيث الموقع جميل جدا وهادىء جدا ، هادىء الى درجة يصعب معها ان يصدق الانسان بأن هناك حربا عالمية . وتختمين رسالتك بأن تقترحى على شندرالال الحضور كى يلحق بك هنا

فرمقته جوليا بنظرة حادة وقالت :

ـ وهل تظن شندرالال ابله ؟ انه سيرفض الحضور

ـ فى هذه الحالة يجب عليك ان تبذلى اقصى ما فى وسعك لاغرائه بالحضور

فنظرت جوليا الى اشندن طويلا من غير أن تجيب . وخامره الظن بأنها كانت تتداول فى الامر بينها وبين نفسها . فلعلها بكتابة الخطاب المطلوب والتظاهر بالرضوخ التام تكسب فسحة من الوقت

وأخيرا قالت جوليا :

ـ حسنا . امل على وسأكتب ما تريد

فابتسم أشندن ابتسامة ماكرة وقال :

ـ بل افضـــل أن تكون الرسالة من انشائك وبطريقتك الغريدة

المنادة بينكما

ـ امنحني نصف ساعة وسكون الخطاب معدا

فقال اشندن بهدوء

ـ سأنتظر هذه النصف ساعة هنا

فسألته بدهشة

ـ لماذا ؟

فقال بهدوء حازم :

ـ لاني أوثر ذلك

فومضت عيناها بنار الغضب ، بيد أنها تحكمت في أعصابها ولم تقل شيئا . وكانت على منضدتها أدوات للكتابة ، فجلست وبدأت تكتب

ولما قدمت الى اشندن الخطاب بعد فراغها من تحريره لاحظ أن شحوبها كان واضحا تحت طلائها الاحمر الثقيل

وكان الخطاب خطاب شخص لم يتعود كثرة استعمال الحبر في التعبير عن نفسه . ولكن الخطاب كان وافيا بالغرض . وكانت عبارات الحب نابضة بالحياة والصدق . وضغط اشندن على أعصابه وقال لها :

ـ والآن أضيفي هذه العبارة

ـ قل

ـ « أن الذي يحمل اليك رسالتي رجل سويسري في وسعك أن تطمئن اليه طمأنينة مطلقة . فاني لم أحب أن يتعرض خطابي هذا لعيون الرقابة على البريد »

وسألته في هجاء بعض الكلمات فقال لها :

ـ اكتبيها بهجائك الخاص . والآن اكتبي العنوان على مظروف بخطك وبعدها ساخلصك من سجنني

وسلم اشندن الخطاب الى احد عملائه السويسريين الذي كان ينتظر كي يحمله عبر البحيرة . وفي مساء ذلك اليوم نفسه اتاها اشندن بالرد فانتزعته من يديه وضغطته فوق قلبها لحظة قبل ان تطالعه . ولما طالعته أطلقت صرخة ارتياح :

ـ لن يأتي

وكان الخطاب مكتوبا بتلك الانجليزية المزركشة الاسلوب ، وقد عبر فيها الهندى عن حيبة أمله المريرة وكيف انه كان يتطلع فى شوق ولهفة الى لقائها . وتوسل اليها توسلات حارة أن تفعل كل ما يمكن فى تذليل العقبات التى حالت بينها وبين عبور الحدود السويسرية. وأكد لها انه من المستحيل عليه أن يأتى الى فرنسا بأية صوره . فهناك ثمن غال فى صورة جائزة لمن يأتى برأسه حيا أو ميتا . ومن الجنون ان يجازف برأسه ، ثم أردف ذلك بعبارة مازحة :

ـ « ولا أظنك راغبــة فى أن يعدم بالرصاص حبيبك الاســمر البدين يا ريحانة قلبى »

وعادت جوليا تقول فى سرور فائق :

ـ لن يأتى . لن يأتى

ـ يجب ان تكتبى اليه مرة اخرى لتؤكدى له انه لا مخاطرة على الاطلاق

ـ لن يصدقنى

ـ سيصدقك اذا قلت له انه لو كانت هناك أية مخاطرة لما جال بفكرك لحظة واحدة أن تطلبى منه القدوم . وقولى له ايضا انه أن كان يكن لك حبا صادقا فلن يتردد هكذا فى الاجتماع بك وانت على بعد كيلومترات قليلة

ـ لن أكتب اليه شيئا من هذا

ـ لا تكونى بلهاء . فكرى فى مصيرك !

فانفجرت فجأة تبكى بدموع غزيرة . ثم القت بنفسها على الارض وتعلقت بركبتى أشندن متوسلة اليه أن يرحمها .

ـ انا على أتم استعداد أن ابذل لك أى شىء فى الدنيا ان أنت تركتنى اذهب لحال سبيلى . أذهب اليه

فقال أشندن :

ـ ما أسخفك ! اتظنيننى أريد أن أكون عشيقك ؟ اصغى لصوت العقل وفكرى فى مصيرك

فنهضت واقفــة على قدميها وتبدلت فجــأة من النقيض الى النقيض : تبدلت من التوسل والتضرع الى الغيظ والنقمة والغضب واخذت تقذف فى وجه اشندن بأقذع أنواع السباب والنعوت كالسيل

الجارف . فقال :

ـ انا افضل سبابك على توسلاتك . ذلك أفضل لى . والآن اما ان تكبى كما امرتك او ارسل فى طلب الشرطة !

ـ ولكنه لن يأتى . كل هذا مجهود ضائع

فقال اشندن بإصرار :

ـ من مصلحتك أن تغريه بالحضور

فنظرت اليه بدهشة وقالت :

ـ ماذا تعنى بذلك ؟ أتعنى اننى حتى لو بذلت كل مافى وسعى وفشلت فمع ذلك سوف ...

وظهر الذعر فى عينيها ولم تجسر على اتمام عبارتها . فأومأ اشندن برأسه فى هدوء وحزم وقال :

ـ نعم . اما هو واما أنت !

فترنحت . ورفعت يدها الى قلبها . ثم مدت يدها من غير أن تنطق الى القلم والورق . وسطرت خطابا لم يرق فى نظر أشندن فحملها على اعادة المحاولة . ولما فرغت منه ارتمت فوق الفراش وانفجرت مرة اخرى فى نوبة عاصفة من البكاء

كان حزنها صادقا . ولكن تعبيرها عنه كان لا يخلو من عنصر مسرحى . وذلك ما خفف من وطأة تأثيرها على أشندن

وساعد اشندن على تحمل الموقف انه كان ينظر اليها نظرة خالية من العامل الشخصى كنظرة الطبيب الى ألم يعجز طبه عن تخفيفه . وادرك الآن لماذا اختاره الكولونيل لهذه المهمة بالذات



الفصل التاسع

ثورة عارمة

ولم يرها اشندن فى اليوم التالى . فان الرد على خطابها لم يسلم اليه الا بعد وجبة العشاء ، عندما أحضره فليكس الى بيت اشندن الصغير . وسأل اشندن الشرطى الفرنسى :

ــ ماذا وراءك من الاخبار ؟

فابتسم الفرنسى ، وقال :

ــ ان صاحبتنا بدا اليأس يستولى على قلبها . وبعد ظهر اليوم سارت الى المحطة فى اللحظة التى كان أحد القطارات يتأهب فيها للرحيل الى ليون . ورأيتها تنظر فى طول الرصيف وعرضه فى تردد . فاتجهت نحوها وسألتها بكل أدب وحزم ان كانت فى حاجة الى أى شىء أستطيع أن أؤديه لها . وقدمت لها نفسى باعتبارى مخبرا فى ادارة الامن العام

ــ وماذا قالت لك ؟

فازدادت ابتسامة الفرنسى اتساعا وهو يقول :

ــ اقسم لك لو أن النظرات كانت كافية للقتل ، لما وجدتنى الان واقفا بين يديك !

فقال اشندن :

ــ اجلس ياصديقى

ــ شكرا لك . وما كان منها بعد ذلك الا أن انصرفت من المحطة . وكان واضحا انها أيقنت بعبث محاولة ركوب القطار . ولكنها لم تقف مكتوفة اليدين . بل هناك شىء مثير حقا للاهتمام اقدمت عليه تلك السيدة ، واريد أن أفضى به اليك

ــ وما هو ؟

ـ عرضت الف فرنك على نوتى يملك قاربا فوق بحيرة لوزان كى يعبر بها البحيرة الى الشاطىء السويسرى

، فظهر الاهتمام على وجه اشندن وقال له :

ـ وماذا كان رد النوتى ؟

ـ انه لا يستطيع الاقدام على هذه المخاطرة

ـ وبعد ؟

فهز المخبر الفرنسى كتفيه وابتسم قائلا :

ـ فطلبت اليه ان يقابلها على الطريق المفضى الى ايفيان فى الساعة العاشرة من هذه الليلة ، كى تستأنف مفاوضته فى هذا الموضوع . وقد لمحت له من طريق خفى بانها لن ترفض بكل اباء وشمم رغبته فى الاختلاء بها اختلاء غراميا . ولما قال لى الرجل ذلك قلت له اننى لا ابالى ماذا يكون بينه وبينها ، فذلك شأنه وحده مادام سيأتى بعدها ويفضى الى بكل ماله اهمية من الحديث

وسأله اشندن عندئذ :

ـ هل انت متأكد بانه اهل للثقة ؟

ـ جدا . فهو لايعرف شيئا بالطبع سوى انها تحت رقابة شرطة الامن . فلا حاجة بك الى القلق من جهته . انه فتى يعتمد عليه ، وقد عرفته منذ طفولته

وقرأ اشندن رسالة شندرالال فاذا بها تفيض باللهفة والهيام هياما حقيقيا يدل على حب صادق كأصدق مايعرفه اشندن عن الحب عند الناس . وقد حدثها فى الخطاب كيف يجد الساعات طويلة طويلة وهو يقضيها فى السير على قدميه على شاطىء البحيرة ، وعيناه متعلقتان بالشاطىء الآخر ، شاطىء فرنسا ! وكيف أنهما قريبان غاية القرب ، وبينهما مع ذلك اقسى حائل عازل

وحدثها مرة أخرى فى عبارات كثيرة مكررة المعنى انه لايستطيع ان يأتى اليها ، وتضرع اليها الا تلح فى ذلك الطلب . فهو خليق ان يقدم على اى شىء فى الدنيا من أجلها . اما هذا فلا يجسر على الاقدام عليه . ومع ذلك فلو الحت فكيف عساه يجد قدرة فى نفسه على المقاومة ؟

وتوسل اليها أن تشفق عليه . ثم أطلق صرخة الم ممض فى

عبارات طويلة مؤثرة لانه يجب أن يرحل من غير أن يراها . وسألها أن تبحث عن أية وسيلة للتسلل من الحدود والحضور اليه . ثم أقسم انه لو أتيح له أن يضمها بين ذراعيه لما أفلتها ولا سمح أن يكون بينهما فراق مادام حيا

كانت عباراته ملتهبة تكاد تحرق صـفحات خطابه . كانت رسالة رجل سلب الالم عقله ...

وسأل أشندن المخبر الفرنسى :

ـ ومتى تتوقع أن تسمع نتيجة مقابلتها مع النوتى ؟

فقال الفرنسى :

ـ لقد رتبت معه الامر بحيث أقابله فى الميناء فيما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل

فقال أشندن وهو ينهض :

ـ سآتى معك

ومشى الاثنان فهبطا التل الذى يقوم على قمته البيت المنعزل ، ثم عرجا على الميناء ووقفا بالقرب من ادارة الجمرك . وبعد برهة من الانتظار أقبل نحوهما رجل ، فخرج فليكس من الظل الذى يخفيهما وقال :

ـ انطوان ؟

فأجاب القادم .

ـ مسيو فليكس ؟ معى شىء لك

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أنه شىء يهمك الحصول عليه

ـ ماهو ؟

ـ خطاب وعدت أن حمله الى لوزان بنفسى على أول زورق يقلع من هنا فى الصباح

ولم يحاول أشندن أن يسأل الرجل ماذا جرى بينه وبين جوليا لازارى حتى قبل أن يؤدى لها هذه الخدمة السرية . وتناول الخطاب ثم استعان بمصباح فليكس الكهربائى على قراءته . وكان مكتوبا بلغة المانية ركيكة كثيرة الاغلاط على قلة كلماته :

« لاتحضر لأى سبب وبأى شكل تحفظ على رسائلى هناك

خطر بحيق بك . احبك . واياك ياحبيبي ان تحضر ؟

ووضع اشندن الرسالة الصغيرة فى جيبه ثم أعطى النوتى خمسين فرنكا ، وعاد الى بيته كى ينام

وفى اليوم التالى ذهب اشندن لزيارة جوليا لازارى فوجد باب حجرتها بالفندق مقفلا بالمفتاح . وظل يطرق البـاب برهة فلم يتلق جوابا . فراح يناديها وهو يهز الباب :

ـ مدام لازارى ! يجب ان تفتحى البـاب . اريد ان أتحدث اليك

فجاء صوتها من الداخل :

ـ أنا فى الفراش . مريضة ولا استطيع أن اقابل أحدا

فقال اشندن باصرار :

ـ يؤسفنى هذا ولكن يجب ان تفتحى الباب

ـ قلت لك انى مريضة

ـ اذن سارسل فى طلب الطبيب

ـ انصرف . قلت لك لن اقابل أحدا فلا تتعب نفسك !

ـ ان لم تفتحى الباب سأرسل فى طلب صـانع الاقفال كى يفتحه عنوة

وساد الصمت برهة ثم سمع صرير المفتاح يدور فى القفل ودخل اشندن فرآها فى ثوب النوم وشعرها مشعث . فكان واضحا أنها خرجت لتوها من الفراش

ونظرت اليه بانكسار ، وقالت :

ـ لقد استنفدت قوتى ولا طاقة لى بعمل شيء . يكفى أن تنظر الى سحنتى لتعرف انى مريضة . والواقع انى كنت مريضة اشعر بغثيان طول الليل . لم استطع ان انام . رأسى يكاد ينفجر

فقال أشندن :

ـ لن أستبقيك طويلا . اتحبين أن ندعو طبيبا ؟

فمطت شفتيها وقالت بأسى :

ـ وماذا يستطيع لى الطبيب ؟

فأخرج أشندن من جيبه الخطاب الذى كانت جوليا قد أعطته للنوتى وقدمه اليها قائلا :

ــ ما معنى هذا ؟

فشهقت عندما رأت رسائلها واخضر لون وجها الشاحب

فقال اشندن :

ــ لقد أعطيتنى وعد الشرف انك لن تحاولى الهرب أو ارسال خطاب الى حبيبك من غير علمى

فصرخت فى غيظ واحتقار :

ــ وهل خطر ببالك اننى سأبر بوعدى حقا ؟

فقال اشندن بهدوء :

ــ كلا . ولا أكتمك اننا لم ننزلك فى هذا الفندق المريح بدلا من حبسك فى أحد السجون المحلية حرصا على راحتك الشخصية فحسب ، بل انه من الجائز لى أن أصارحك الان انك وان كنت مطلقة الحرية فى الدخول والخروج كما تشائين ، الا انك لاتستطيعين الافلات من تونون كما لو كنت مقيدة بالسلاسل فى زنزانة سجن . فمن البلاهة أن تضيعى وقتك فى كتابة خطابات لن تصل الى حيث تريدين

فصاحت فى وجهه بأقصى قوتها :

ــ يالك من خنزير قذر !

فلم يكترث وقال لها بهدوء حازم :

ــ ينبغى عليك أن تجلسى الان لتكتبى خطابا سيصل الى حيث نريد !

ــ كلا . لن افعل شيئا أكثر مما فعلت . لن اكتب كلمة اخرى

فقال اشندن :

ــ ولكنك جئت معى الى هنا على أساس انك ستفعلين أشياء معينة

فهزت كتفيها وقالت :

ــ ولكنى لن أفعلها . انتهينا !

فاستعان أشندن بمزيد من الصبر وقال بلهجة لا تخفى فيها نبرة الوعيد :

ــ من الخير لك أن تفكرى فى الامر قليلا !

فصاحت وعيناها تومضان بالحقد :

ـ أفكر قليلا ؟ وهل كنت أصنع شيئا سوى التفكير ؟ لقد فكرت . ولك ان تصنع بي ما تشاء . فلست ابالي

ولم يفارق اشندن هدوءه وقال :

ـ جميل جدا . سامنحك خمس دقائق مهلة تغيرين فيها رايك

واخرج ساعته من جيبه واخذ ينظر اليها ثم جلس على حافة السرير وظل صامتا . فضاقت بذلك الصمت واخذت تقول :

ـ لقد اتعب اعصابي وجودي في هذا الفندق . لماذا لم تودعوني غيابة السجن ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ان هذه الحرية الظاهرية التي اتمتع بها هنا تكاد تطير صوابي . حرية في الدخول والخروج ولكني احس في كل مكان وكل خطوة بالجواسيس في أعقابي . ان ما تصنعونه بي فظيع ومشين مخجل ! الا خبرني ما هي جريمتي ؟ اني أسألك ما جريرتي ؟ ماذا صنعت حتى استوجبت هذا كله ؟ الست امراة ؟ ان ما تطلبون مني ان أصنعه فظيع وشائن !

وكانت تتكلم بصوت مرتفع مشدوخ . وظلت تتكلم تباعا الى ان انتهت الدقائق الخمس واشندن ساكت لا ينطق بحرف . ثم نهض واقفا فصرخت في وجهه :

ـ نعم اذهب ! انصرف عني

واخذت تقذفه بسباب بذيء لا يصلح للنشر ، فقال بهدوء :

ـ ولكنني ساعود !

وعندما خرج من الباب اقفله بالمفتاح من خلفه . ثم نزل السلم مسرعا الى البهو فكتب رسالة على عجل ونادى ماسح الاحذية فأرسله بها الى مركز الشرطة . ثم صعد السلم مرة اخرى

وكانت جوليا لازاري قد القت بنفسها على الفراش وأدارت وجهها الى جهة الحائط . وجسمها يهتز بنحيب هستيري . ولم تظهر عليها أية علامة تفيد انها سمعته يدخل . فجلس اشندن فوق مقعد مواجه لمائدة الزينة واخذ ينظر الى الادوات المختلفة المتناثرة فوقها

ولاحظ ان مواد الزينة التي كانت تستعملها رخيصة وليست مرتبة ولا نظيفة . فهناك بقع كثيرة من الاحمر والكريم البارد متناثرة على المائدة مع لطخ من الكحل الذي يستخدم للحواجب والرموش .

اما دبابيس الشعر فكانت قبيحة الشكل مغطاة بطبقة دهنية

والواقع أن الحجرة كلهـا كانت على شيء من الفوضى ، والهواء فيها ثقيل بما يحمله من رائحة العطر الرخيص . وفكر أشندن فى مئات الحجرات التى لابد أنها نزلت فيها بفنادق الدرجة الثالثة ، فى خلال حياة التجوال التى عاشتها من بلدة ريفية الى اخـرى فى قطر بعد قطر . وتساءل عن أصل نشأتها . انها الان امرأة خشنة سوقية ، ولكن كيف نراها كانت ابان صباها ؟ انها ليست من ذلك الطراز من النساء الذى ينتظر منه السير فى طريق الفن . لانه من الواضح أنها لا تتمتع بأى شيء من المزايا التى تؤهلها لذلك . ثم خطر بباله أنها ربما كانت منحدرة من اسرة لاعبى سـيرك . ففى جميع أنحاء العالم عائلات من لاعبى السيرك كان أبنـاؤهم بالوراثة يحترفون الفن ، لانهم ولدوا فى رحابه . أو لعلهـا كانت عشيقة احد الممثلين الصغار فادخلها حظيرة الرقص

كم من الرجال عرفت فى حياتها طيلة تلك السنين ؟ ما بين زملاء فى التمثيل والاستعراض ووكلاء للفنانين ومديرى فرق ممن يرون من حقهم الطبيعى أن يعاشروها . ثم هناك التجار وأعيـان الارياف وأبناء الاسرات الذين يرون من أوليات الوجاهة أن يحظوا براقصات الفرق المتجولة التى تنزل بالبلدة ليلة أو بضع ليال !

وهؤلاء كانوا فى نظـرها بالطبع هم مصـدر الايراد الذى تعيش منه ، فكانت تتقبلهم ببرود مهنى . ولكن بالنسبة لهم لعلهـا كانت تمثل المغامرة والذكريات الساخنة التى يدخرها الشبان لسنوات الشيخوخة او الاستقرار فى الحياة الزوجية

وفجاة طرق الباب طارق فصاح أشندن على الفور :

ـــ أدخل !

ووثبت جوليا لازارى جالسة فى فراشها وصاحت :

ـــ من ؟

وظهر عليهـا الروع عنـدما رات المخبرين اللذين أحضراها من بولونيا وسلماها الى اشندن فى تونون يدخلان عليها فصرخت :

ـــ انتما ؟ ماذا تريدان ؟

فصاح أحدهما فى صوت فظ يوحى بانه لن يتردد فى استخدام العنف :

ـ هيا . قومى

وقال اشندن برقة ظاهرية :

ـ أخشى يا مدام لازارى أنه لا مفر لك من القيام

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لانى ساسلمك مرة اخرى لعناية هذين السيدين

فصرخت جوليا :

ـ ولكن كيف انهض ؟ قلت لك أنى مريضة . لا استطيع الوقوف العلك تريد أن تقتلنى ؟

فلم يكترث اشندن وقال لها

ـ ان لم ترتدى ثيابك بنفسك سنضطر الى ان نقوم بذلك نيابة عنك . واخشى اننا لن نستطيع ذلك بمهارة كافية . فمن الخير لك ان تقومى لانه لا فائدة من هذه المراوغة

فسالته جوليا :

ـ ولكن الى اين تريد ان تاخذنى ؟

ـ سياخذاك ليعودا بك الى انجلترا

ومد احد المخبرين يده فقبض على ذراعها بعنف . فصرخت بغضب :

ـ اياك أن تلمسنى ! لا تقترب منى !

فقال له اشندن :

ـ دعها وشانها . انا واثق انها ستثوب الى عقلها وتدرك انه من الخير لها الا تثير المتاعب

فقالت جوليا :

ـ سارتدى ثيابى

وجعل اشندن يرمقها وهى تخلع ثوب النوم وتلبس ثوبا للخروج ثم تحشر قدميها حشرا فى حذاء كان اصغر من حجمهما بشكل واضح . ثم رتبت شعرها . وبين حين وآخر كانت ترمق المخبرين بنظرات شذراء

وتساءل اشندن فيما بينه وبين نفسه : ترى هل ستجد لديها الجسارة على المضى فى العناد والرفض ؟. ان الكولونيل سيعتبره مغفلا غبيا اذا اخفق فى مهمته . ولكنه فى قرارة نفسه كان يتمنى

لو أنها وجدت فى نفسها الصلابةالكافية للمضى فى الرفض الىالنهاية كى تنقذ حبيبها شندرالال

واتجهت جوليا الى مائدة الزينة فوقف اشندن ليتيح لها الجلوس . وجلست أمام المرآة فوضعت على وجهها الكريم بسرعة ثم مسحته بمنشفة قذره ووضعت المساحيق ثم وضعت الكحل فى عينيها ويداها ترتجفان وكان الرجال الثلاثة يرقبونها صامتين . ثم صبغت خديها وفمها بالاحمر ودست رأسها فى قبعة

واشار اشندن الى احد المخبرين فاخرج من جيبه الاغلال الحديدية وتقدم نحوها ليصفد معصميها . ولما رات الاصفاد تراجعت الى الوراء فى ذعر ، وفتحت ذراعيها على سعتهما واخذت تصرخ :

ـ كلا كلا . لا أريد . الا هذا !

فقال المخبر فى فظاظة :

ـ هيا يافتاتى . لا تكونى بلهاء

واذا بها تأتى بحركة دهش لها أشندن غاية الدهشة ، فقد القت بذراعيها حول عنقه كأنها تلتمس منه الحماية ، وصاحت :

ـ لا تدعهما يأخذاني . ارحمنى ! لا أستطيع ! لا أستطيع !

وخلص أشندن نفسه من ذراعيها وقال :

ـ لا استطيع لك شيئا بكل اسف

وقبض المخبر على معصميها ، وأوشك أن يضعهما فى الاصفاد واذا بها تطلق صرخة عظيمة وتلقى بنفسها على الارض وتصيح :

ـ سأفعل ما تريد منى . سأفعل كل شيء !

واشار أشندن الى المخبرين فغادرا الحجرة . وتمهل بعدها برهة الى أن استعادت هدوءها . وكانت منبطحة على الارض تنتحب بكل عنف . فتقدم منها وانهضها على قدميها ثم أجلسها

وقالت بين الشهيق :

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ اريد منك أن تكتبى خطابا آخر الى شندرالال

ـ ان راسى به دوامة ولن أستطيع أن أكتب جملة واحدة . يجب أن تمهلنى بعض الوقت

وتحير أشندن بين الرحمة والحكمة . ثم رأى أنه من الخير أن ينتهز فرصة فزعها الشـديد كى تكتب الخطاب قبل أن تسـترد شجاعتها وتعود الى التمرد والرفض

ــ سأملى الخطاب عليك . ولكن يجب أن تكتبى ما أمليه عليك بالضبط

فندت عنها زفرة محرقة ، ثم تناولت القلم والورق وجلست امامه الى منضدة الزينة وقالت .

ــ اذا فعلت ماتريد . . ونجحت خطتك . كيف لى أن اعلم انكم ستطلقون سراحى ؟

فقال لها أشندن :

ــ لقد وعدك الكولونيل بذلك . وثقى أننى سـأنفذ تعليمـاته بحذافيرها واطلق سراحك متى وصل صاحبك الى هنا

ــ لا شك أننى أكون أشـد الناس غفلة اذا أنا خنت حبيبى ثم تلقون بى فى السجن بعدها

فقال لها أشندن مترفقا :

ــ سأبين لك أعظم ضمان لصدق وعدنا

ــ ما هو ؟

ــ انه لا اهمية لك عندنا شخصيا اطلاقا فيما عدا كونك طعمـا لاستدراج شندرالال . فلماذا نجشم انفسنا المتـاعبه والنفقات لاستضافتك فى السجن وحريتك لا ضرر منها لنا ؟

وفكرت فى كلامه لحظة ثم عاد اليها هدوؤها وقالت بلهجة عملية :

ــ خبرنى ماذا تريدنى أن أكتب ؟

وتردد اشندن . لقد خيل اليه أنه سيستطيع تقليد طريقتها فى كتابة رسائلها بسهولة . وهاهو ذا يجد الامر عسيرا . فلابد من انقان اللهجة المناسبة وأن يخلو الاسـلوب من الثقـافة واثارها البيانية . ولكن الموقف لابد له أيضا من لهجة بعيـدة عن بسـاطة الحديث العادى . وأخيرا جمع امره واملى عليها ما اعتبره السـهم الاخير فى كنانته للحصول على الفريسة

الفصل العاشر

الفريسة

ـ أكتبي ..

« لم اكن اعلم انني احببت جبانا رعديدا ... فلو انك كنت تحبني حقا لما أمكنك أن تتردد على هذه الصورة عندما طلبت منك أن تأتي ... (وضعي خطا تحت لما أمكنك ... وقد وعدتك أنه ليس هناك خطر محدق . فان كنت لا تحبني فخيرا صنعت اذ لم تأت . لا تأت ! عد الى برلين حيث تشعر بالامان والطمأنينة . لقد سئمت هذه اللعبة . أنا هنا وحيدة مريضة . أمرضني انتظارك وانا امني نفسي كل يوم انك ستأتي . فلو كنت تحبني لما ترددت هكذا . لقد تبين لي الان انك لا تحبني . نفسي سئمتك . وليس عندي مال . وهذا الفندق فظيع . ثم لم يعد هناك ما يدعو لبقائي فيه ، وفي استطاعتي أن أحصل على اتفاق للعمل في باريس . ولي هناك صديق عرض علي عروضا جديدة مغرية . وقد اضعت وقتا طويلا معك وبسببك ثم ها هي ذي النتيجة ! على كل حال قد انتهينا . ووداعا . واعلم انك لن تجد امرأة تحبك كما أحببتك أنا . وأنا الان في موقف لا أستطيع معه أن أرفض اقتراح صديقي ، ولذا أرسلت اليه برقية بالموافقة على عروضه . وبمجرد وصول رده على برقيتي سأذهب الى باريس . وثق أنني لا ألومك على شيء لانك في الواقع لا تحبني . وهي ليست غلطتك . ولكن يجب أيضا أن تراعي انني أكون غاية في الغباء لو ثابرت على اهدار حياتي وتضييع الفرص التي لاتتكرر . لأن الشباب لا يدوم الى الابد . وداعا ... جوليا »

ولما فرغ اشندن من الاملاء طلب منها الخطاب وقراه مرة أخرى

فلم يرض عنه كل الرضا . ولكنه كان أفضل ما يستطيع . ولاحظ أن الاملاء كان عجيبا جدا يصل الى حد الفحش فى الخطأ الهجائى. وان الخط كخط طفلة . وما اكثر الكلمات التى شطبتها وكتبت غيرها عدة مرات وكان قد املاها بعض العبارات بالفرنسية تقليدا لطريقتها . وقد سقطت دموعها مرتين او ثلاثا على الصفحات فطمست معالم بعض الكلمات . .

وقال لها اشندن :

ـ الان أتركك . وربما أتيح لى عندما نلتقى فى المرة القادمة أن اخبرك انك صرت طليقة السراح لتذهبى حيث تشائين . وفى هذه الحالة احب أن أعرف ابن تنوين الذهاب

فقالت بطريقة آلية :

ـ الى اسبانيا

فقال اشندن :

ـ وهو كذلك . سيكون كل شىء معدا لسفرك

فلم تزد على أن هزت كتفيها . فتركها وانصرف

□

ولم يعد أمام اشندن ما يصنعه سوى أن ينتظر . وأرسل رسولا الى لوزان بعد الظهر بالرسالة . وفى الصباح التالى ذهب الى رصيف الميناء ليستقبل الزورق القادم من لوزان

وكانت هناك قاعة انتظار مجاورة لمكتب التذاكر . وهناك أمر المخبرين بالتربص وأن يكونوا على قدم الاستعداد . والمتبع عند وصول الزورق أن يتقدم الركاب فى صف فتفحص جوازات سفرهم قبل أن يسمح لهم بالنزول الى الشاطىء . فاذا جاء شندرالال وأبرز جواز سفره . ومن المرجح أنه يسافر بجواز مزور صادر فى الغالب من دولة محايدة ، ففى هذه الحالة سيطلبون منه الانتظار ثم يستدعون أشندن ليتحقق من شخصيته . وعندئذ يتم القبض عليه

وبكثير من توتر الاعصاب جعل اشندن يرقب الزورق وهويدخل الميناء ثم شرع يتفحص وجوه الركاب واحداً بعد واحد ؛ ولكنه لم يعثر بينهم على أحد يشبه أدنى شبه مسافرا من الهند

شندرالال لم يحضر اذن ... لم يدر اشندن ماذا يفعل . لقد لعب ورقته الاخيرة . وكان عدد الركاب النازلين فى تونون لا يزيد على حفنة قليلة سرعان ما تفرقوا الى حال سبيلهم . وراح أشندن يتمشى فوق الرصيف بخطوات بطيئة ، ثم قال لفليكس الذى كان يفحص جوازات السفر :

ــ لقد فشلنا . والسيد الذى كنت أنتظر قدومه لم يحضر

فغمز فليكس بعينه ، وقال :

ــ عندى خطاب يهمك كثيرا

وقدم الى اشندن مظروفا عليه عنوان مدام لازارى . فعرف اشندن على الفور خط يد شندرالال . وقبل ان يفض المظروف لمح الزورق القادم من جنيف ووجهته لوزان . وهذا الزورق يصل الى تونون دائما كل صباح بعد وصول الزورق القادم من لوزان بعشرين دقيقة . وخطرت لاشندن فكرة ومضت فى نفسه كأنها بريق الالهام ، فقال لفليكس :

ــ اين الرجل الذى احضر هذا الخطاب ؟

ــ انه هناك فى مكتب التذاكر

فصاح به اشندن :

ــ اسرع واعطه الخطاب وقل له ان يعود الى الشخص الذى سلمه اياه فى لوزان

ــ وماذا يقول له ؟

ــ يقول له انه حمل الرسالة الى السيدة ولكنها رفضت أن تتسلمها وطلبت منه ان يردها اليه . فاذا طلب منه ذلك الشخص ان يحمل خطابا آخر الى السيدة ، فعليه ان يقول له ان ذلك لا فائدة منه لان السيدة كانت بصدد حزم حقائبها والرحيل عن تونون

وبعد ان تأكد من تلك الاجراءات خرج اشندن عائدا الى البيت الصغير القائم فوق التل

كان موعد الزورق التالى الذى يمكن ان يصل عليه شندرا الساعة الخامسة تقريبا . وفى هذا الموعد بالذات كان لدى أشندن ارتباط سابق لمقابلة احد عملائه الذين يعملون فى المانيا . فنبه فليكس

الى انه قد يتاخر فى الحضور الى الميناء بضع دقائق

وعلى كل حال اذا حدث أن حضر شندرالال فمن السهل حجزه ولا ضرر من تأخره . فلا حاجة ماسة الى العجلة لأن القطار الذى سيرحل فيه الهندى الى باريس لا يقوم من تونون الا بعد الساعة الثامنة

وبعد ان انتهى أشندن من مقابلته مع العميل القادم من المانيا سار متئدا الى رصيف الميناء على شاطىء البحيرة . وكان الوقت لا يزال بعيد الغروب وفى السماء بصيص من نور فاستطاع ان يرى دخان الزورق البخارى وهو مقلع عائدا الى لوزان

ومن غير أن يفكر وجد نفسه نهبا للقلق واسرع فى خطاه . وفجاة راى شخصا يجرى مقبلا نحوه ، وسرعان ما عرف فيه الرجل الذى حمل الخطاب الى شندرالال . واخذ الرجل يصيح به :

ـ اسرع أسرع ! انه هنا

فقفز قلب اشندن فى صدره قفزة قوية وقال :

ـ اخيرا !!

وشرع يجرى باقصى سرعته . والرجل يجرى بجواره ويحدثه وهو يلهث بتفاصيل ماحدث عندما أعاد الخطاب مغلقا الى شندرالال :

ـ عندما وضعت الخطاب فى يد الهندى شحب وجهه شحوبا فظيعا . ولم اكن يا سيدى اعتقد أن رجلا داكن البشرة بهذه الصورة يمكن ان يبيض وجهه من أثر الشحوب هكذا . وجعل يقلب الخطاب فى يده كأنه لا يستطيع أن يفهم ماذا جاء به ولماذا هو فى يده لا فى يدها . وانبثقت الدموع من عينيه وانهمرت مدرارا على خديه فكان المنظر فظيعا ومضحكا فى آن واحد . لأنه رجل بدين كما تعلم يا سيدى . ثم تمتم بلغة لا أفهمها . وما لبث ان سألنى بالفرنسية عن موعد قيام الزورق الى تونون . وبعد ذلك غادرته وذهبت الى الميناء . ولما ركبت الزورق لم أره بين الركاب . ونقبت عنه واخيرا وجدته منعزلا فى مكان وحده وقد أرخى قبعته فوق عينيه . وظل طوال الرحلة شاخص النظرات الى تونون

وسأله أشندن :

ـ واين هو الآن ؟

ـ لقد سبقته فى النزول واخبرت المسيو فليكس فطلب منى ان اسرع للاتيان بك . فلا ادرى اين هو . واظنهم قابضين عليه الآن فى حجرة الانتظار

وكان أشندن قد لهث ونال منه التعب عندما وصل الى الميناء . فاندفع داخلا الى قاعة الانتظار . وهناك وجد جماعة من الناس . وهم يتحدثون جميعا فى وقت واحـــد باعلى اصواتهم ، ويلوحون بايديهم بصورة جنونية ، متجمعين حول رجل ملقى على الأرض

وصاح اشندن :

ـ ماذا حدث ؟

فقال فليكس :

ـ انظر !

ونظر اشندن فاذا شندرالال ملقى هناك وعيناه جاحظتان والزبد متجمع فوق شفتيه ، وجسده متخشب ومتقلص بصورة فظيعة . لقد فارق الحياة

وقال فليكس يشرح الأمر :

ـ قتل نفسه . وأرسلنا فى استدعاء الطبيب ولكن الموت كان أسرع اليه منا

وسرت فى جسد اشندن قشعريرة فظيعة

وجلية الأمر ان الهندى عندما نزل من الزورق ، عرفه فليكس على الفور من الاوصاف التى لديه . وكان عدد الركاب النازلين فى تونون أربعـة فقط كان شندرالال الاخير بينهم . فتعمد فليكس التباطؤ غير المعقول فى فحص جوازات سفر الثلاثة الذين قبله . ثم تناول جواز سفر الهنـدى . وكان جوازا اسبانيا مستكملا لجميع الشروط الرسمية

وبدا فليكس يلقى على شـندرالال الاسئلة المعهودة على حسب التعليمات ، ويسجل الاجوبة فى الاستمارة كما هو معتاد مع كل راكب . ولما انتهى من ذلك ولم يكن اشندن قد حضر ، رفع فليكس عينيه الى وجه الهندى وابتسم فى دماثة شديدة قائلا :

ـ أرجو ان تتفضل بالتوجه معى الى قاعة الانتظار لحظة واحدة ، لأن هناك بضعة أمور شكلية يجب استكمالها

فسأله الهندى

ــ وهل جواز سفرى ليس مستوفيا من اية ناحية ؟

ــ انه على مايرام . مجرد شكليات

فبدا التردد على شندرالال ، ثم تبع الموظف الى باب حجرة الانتظار المقفل . وفتح فليكس له الباب بادب وتنحى قائلا :

ــ تفضل بالدخول

ودخل شندرالال ، فنهض المخبران واقفين

ولا بد ان شندرالال ارتاب منذ اول وهلة فى انهما من الشرطة ، وادرك انه سقط فى فخ نصب له

وقال له فليكس

ــ اجلس ياسيدى . فهناك سؤال أو سؤالان أحب أن أوجههما اليك

فقال الهندى :

ــ الجو هنا شديد الحرارة . ولذا ساخلع معطفى ان سمحت لى بذلك

وفعلا كانت المدفأة مشتعلة فى الحجرة فارتفعت الحرارة فيها كأنها فرن . وقال فليكس بكل لباقة :

ــ طبعا يا سيدى . . .

وخلع الهندى معطفه بعد شىء من الجهد الظاهر ، ثم دار حول نفسه ليضعه فوق مقعد . وقبل أن يدركوا ما حدث راوه يترنح امام أعينهم ويخر صريعا على الارض . فأثناء خلع معطفه استطاع شندرالال أن يتجرع محتويات زجاجة صغيرة كانت لا تزال فى قبضة يده

وقرب اشندن انفه من الزجاجة وشمها ، فوجد لها رائحة شبيهة برائحة اللوز . ووقف الجميع ينظرون الى القتيل واجمين

واخيرا سأل فليكس فى اضطراب :

ــ هل سيغضبون لأنه انتحر قبل ان يستجوبوه ؟

فهز اشندن كتفيه وقال :

ــ سواء غضبوا أو لم يغضبوا فانا لا ارى لك ذنبا . وحسبنا على كل حال انه لم يعد قادرا على الاستمرار فى الاضرار بمصالح الحلفاء .

ومن جهنى شخصيا أشعر بسرور لأنه قتل نفسه بيده . فان فكرة أعدامه ببد اعدائه على سبيل الانتقام لم تكن تثلج صدرى ياصديقى

وفى هذه اللحظة دخل الطبيب وتحقق من الوفاة ثم قال لاشندن :

ـ سيانور البوتاسيوم

وهز اشندن رأسه جملة مرات ثم قال :

ـ سأذهب الآن لزيارة مدام لازارى . واذا وجدت حالتها العصبية منهارة ، واحتاجت للاقامة هنا يوما أو يومين آخرين ريثما تستجمع شتات قواها فسأسمح لها بذلك . ولكن اذا ارادت أن ترحل الليلة فسيكون لها ما تريد طبعا . هل لك يامسيو فليكس أن تصدر الاوامر للمخبرين فى محطة السكة الحديدية كى يتركوها تمر ؟

فقال فليكس :

ـ بل سأكون بنفسى فى المحطة

وشرع اشندن يصعد التل مرة اخرى نحو منزله المنعزل . وكان الليل قد ارخى سدوله . وكان الجو باردا صافيا والسماء خالية من السحب يزينها هلال كأنه خيط أبيض

وقبل أن يذهب الى منزله عرج على الفندق ونظر الى أثاث البهو واللوحات السياحية المعلقة على الجدران فى اشمئزاز لم يشعر به من قبل . وصعد السلم وطرق الباب طرقة خفيفة ثم فتح باب حجرة جوليا

وكانت جوليا جالسة امام مائدة زينتها تتطلع الى وجهها فى المرآة اما عن سأم او عن يأس . فقد كان واضحا أنها لا تفعل شيئا

وفى صفحة المرآة رأت اشندن داخلا فتغير وجهها فجأة عندما وقع نظرها على وجهه ، وقفزت واقفة فى عنف حتى أن المقعد سقط على الارض

وسمعها تصرخ صائحة :

ـ ماذا حدث ؟ لماذا انت شاحب الوجه هكذا ؟

ودارت على عقبيها وحملقت فيه ثم ارتسم الرعب على وجهها . وقالت لاهثة الانفاس بالفرنسية :

ـ قد وقع فى أيديكم !

فقال اشندن بصوت أجش :

ـ بل مات

فصاحت في فرح وحنق :

ـ مات ! لقد تناول السم اذن ! لقد سنحت له فرصة واتسع الوقت كي يفعل ذلك ، فافلت من أيديكم على كل حال

فقال لها أشندن بدهشة :

ـ ماذا تعنين ؟ وكيف عرفت حكاية السم ؟

فضحكت في سخرية وقالت :

ـ كان يحمل الزجاجة معه دائما ولا تفارقه . كان يقول باصرار أن الانجليز لن يظفروا به حيا مهما حدث

وفكر أشندن برهة وشعر بالاعجاب لأنها كتمت ذلك السر بحرص وعناية . وفطن الآن الى أن تلك الفكرة كان ينبغي أن تخطر له . واخيرا قال لها :

ـ انت الآن حرة تماما . في وسعك أن تذهبي حيث تشائين ولن تقف في سبيلك اية عقبة . ها هي ذي تذكرة سفرك كما وعدتك . وها هو ذا جواز السفر . وها هي ذي النقود التي كانت في حوزتك حينما القي القبض عليك

وسكت قليلا ثم سألها :

ـ اتريدين ان تلقي نظرة أخيرة عليه ؟

فأجفلت وصاحت :

ـ كلا كلا !

فقال لها أشندن :

ـ لا لا ضرورة لذلك حقا . ولكن خطر ببالي أنك ربما عناك أن تلقي عليه نظرة أخيرة ...

لم تبك . وقدر أشندن أنها استنفدت قبل هذه الصدمة انفعالاتها وطاقتها . واستطرد يقول لها :

ـ ستصل الليلة برقية الى الحدود الاسبانية وبها تعليمات الى سلطات الحدود بتسهيل مرورك . فان أردت قبول نصحي يحسن أن تغادري الاراضي الفرنسية باسرع ما تستطيعين

ولم تقل شيئا . ظلت ساكنة . ولما كان لم يعد لدى أشندن ما يقوله ، تأهب للانصراف وقال لها :

ـ يؤسفني أنني كنت مضطرا لاستعمال الشدة معك . ويسرني ان أسوأ ما في متاعبك قد انتهى . وأتمنى ان يمحو الزمن حزنك الشديد ، بسبب موت صديقك

ثم انحنى أشندن واتجه نحو الباب . ولكنها استوقفته قائلة :

ـ رويدك لحظة

فالتفت نحوها متسائلا فقالت :

ـ هناك شيء واحد أحب ان اطلبه منك . واظن ان قلبك لا يخلو من جذوة رقة . . .

فقال اشندن بكل اخلاص :

ـ ثقي انني مستعد ان اصنع من اجلك كل ما استطيع

فسألته في هدوء تام :

ـ ماذا تراهم سيصنعون بأشيائه التي كان يحملها ؟

فظهرت الدهشة على وجه اشندن وقال لها :

ـ لا ادري . ولكن لماذا تسألين ؟

وعندئذ قالت شيئا أذهل اشندن فوقف مبهوتا . قالت آخر ما كان يتوقع أن يسمعه منها :

ـ ان ساعة معصمه كانت هدية مني في عيد الميلاد الاخير . وقد كلفتني اثنى عشر جنيها . وأمامي أيام قاسية . فهل لك في ان تساعدني على استردادها . . . ؟



الفصل الحادى عشر

جوستاف

عندما قرر الكولونيل ارسال أتسدن الى سويسرا ليشرف على مجموعة من الجواسيس الذين يعملون لحساب انجلترا من هناك ، احب ان يطلعه على نموذج للتقارير التى يتطلب منه الحصول على مثلها . ولذا سلمه مجموعة من الوثائق المكتوبة على الآلة الكاتبة ، صادرة من رجل يعرف فى ادارة المخابرات تحت اسم جوستاف ، وهو اسم مستعار بالطبع . وقال الكولونيل :

ـ انه أفضل جاسوس يعمل لحسابنا هناك . والمعلومات التى يزودنا بها كاملة باستمرار ، وشاملة لجميع التفاصيل ، ومناسبة لظروفها وأوقاتها . وأريد منك أن تعير تقارير هذا الرجل أقصى عنايتك . وجوستاف بطبيعة الحال شخص ذكى بارع جدا بصورة خارقة ، ولكن هذا لا يمنع من حصولنا على تقارير تضاهيها فى الجودة والدقة من العملاء الآخرين . وذلك لا يتطلب سوى أن تشرح لهم بالضبط ماذا نريد منهم . وهـــذا الشرح هو مهمتك بصفتك المشرف المباشر عليهم . والأســـــاس أو المستوى الذى تطالبهم بتحقيقه فى تقاريرهم هو مستوى تقارير جوستاف هذه !

وجوستاف يقيم بصفة أساسية فى مدينة بال . وهو مندوب شركة سويسرية لها فروع فى المدن الالمانية الهامة مثل فرانكفورت ومانهايم وكولونيا . وبسبب عمله فى الشركة كان متاحا له أن يذهب الى المانيا ويعود منها بصورة دورية وبشكل طبيعى خال من كل مجازفة

وكانت رحلاته فى منطقة الراين الخطيرة . ومن هناك كان يجمع المعلومات عن تحركات الجيوش ، وصناعة الذخائر والاسلحة ، وعن

الحالة المعنوية للشعب . وهذه مسألة كان يهتم بها الكولونيل اهتماما فائقا . فضلا عن المسائل الاخرى التى كان الحلفاء يطلبون المعلومات المستفيضة عنها

وكانت خطاباته الكثيرة الى زوجته فى بال اثناء رحلاته داخل المانيا تخفى بين سطورها شفرة خاصة . وبمجرد تسلمها لتلك الخطابات . كانت ترسلها اولا بأول الى اشتندن حيث يقيم فى جنيف . فيستخرج من هذه الخطابات الحقائق الهامة ويبلغها الى الجهات المختصة فى الحال

ومرة كل شهرين كان جوستاف يعود الى بيته ووطنه ، ويعد تقريرا من تلك التقارير التى اعتبرها الكولونيل انموذجا ينبغى أن ينسج على منواله الجواسيس الآخرون فى ذلك القطاع بالذات من ادارة المخابرات

كان الرؤساء راضين عن جوستاف . وكانت الاسباب مهيأة كى يرضى جوستاف عن رؤسائه . لان خدماته كانت مفيدة ونافعة ؛ بحيث كان يتقاضى عنها لا اجرا اعلى من اجور الجواسيس الآخرين فحسب ؛ بل كان يتقاضى أيضا بين الحين والحين مكافآت سخية على خدمات لها امتياز خاص

واستمر الحال على هذا المنوال أكثر من سنة ثم حدث شيء ما اثار ريبة الكولونيل السريعة . فقد كان الكولونيل رجلا يتصف بيقظة مدهشة ، لا ترجع الى قوة العقل فى الغالب ، بل الى قوه غريزية خاصة فيه . ويوحى هذه الغريزة شعر فجاة ان هناك شيئا على غير ما يرام . ولم يفص بشيء محدد عن دواعى هذه الريبة الى اشتندن . لان الكولونيل كان من أقدر الناس على كتمان خواطرهم الخاصة مهما كان نوعها ، ولكنه طلب اليه ان يذهب الى بال — وكان جوستاف فى ذلك الحين بالمانيا — وان يتحدث الى زوجة جوستاف . وترك لاشتندن حرية التصرف فى ادارة الحديث معها من غير تحديد

ولما وصل اشتندن الى بال ترك حقيبته فى المحطة لانه لم يكن يدرى هل سيبقى فى المدينة أم يرحل عنها فى نفس اليوم . واستقل الترام الى راس الشارع الذى يسكن فيه جوستاف . ولما نزل من الترام القى نظرة سريعة ليتبين هل هناك من يتبعه أم لا . ثم اتجه

الى البيت الذى يقصده

وكان البيت عبارة عن عمارة سكنية توحى البك بفاقة يسترها التعفف . وغلب على ظن اشندن أن السكان من الكتبة وصغار التجار وأصحاب الحرف . ومن داخل باب العمارة مباشرة وجد دكان اسكاف . ووقف عنده اشندن وسأله بلغته الالمانية المتعثرة سنتا ما :

ـ هل الهر جراباو يسكن هنا ؟

فأجابه الاسكاف على الفور :

ـ نعم . وقد رأيته يصعد الى مسكنه منـــذ دقائق قليلة . ستجده هناك

واخذ أشندن بهذا القول . لأنه تلقى فى اليوم السابق مباشرة من زوجة جوستاف خطابا مرسلا من زوجها الـها من مدينة مانهايم : يتضمن بطريقة شفرته الخاصة أرقام فرق معينة فى الجيش الالمانى قال انها عبرت نهر الراين

ورأى أشندن من الغفلة أن يسأل الاسكاف ذلك السؤال الذى قفز الى شفتيه . واكتفى بأن شكر الرجل وصعد الى الطابق الثالث حيث كان يعلم من قبل أن جوستاف يسكن جناحا منه

ودق اشندن الجرس وسمع رنينه فى الداخل ، وبعد لحظة فتح الباب رجل قصير القامة ذو رأس حليق مستدير ، وعلى عينيه نظارة ، وفى قدميه خف مما يلبس فى المنزل

وسأله أشندن :

ـ الهر جراباو ؟

فقال جوستاف :

ـ فى خدمتك

ـ هل تسمح لى بالدخول ؟

وكان جوستاف واقفا وظهره الى الضوء فلم يستطع أشندن أن يتبين نظراته وسحنته عندئذ . ولكنه شعر أن الرجل تردد ترددا يسيرا ، فنطق أشندن باسمه السرى الذى يتلقى بمقتضاه خطابات جوستاف من المانيا . فقال على الفور :

ـ ادخل . ادخل . انى سعيد جدا بلقائك

وقاده جوستاف الى غرفة صغيرة مزدحمة ثقيلة الهواء ، أثاثها

من خشب البلوط الضخم المنقوش . ورأى اشــــندن فوق المائدة الكبيرة المغطاة بمفرش من القطيفة الخضراء آلة كاتبة . ويظهر أن جوسـاف كان منهمكا فى تدبيج تقرير من تقاريره الثمينة

وعند النافذة المفتوحة جلست امراة ترتق الجوارب . وباشارة من جوستاف نهضت وجمعت الجوارب وانصرفت . فادرك اشندن انه ازعج هدوء اجتماع عائلى نموذجى فى صفائه . وقال جوستاف :

ــ أرجو أن تتفضل بالجلوس . ياله من حظ سعيد أن تجدنى الآن فى بال . فأنا منذ مدة طويلة جدا مشوق الى التعرف بك وقد وصلت فى هذه الدقيقة من المانيا

واشار الى الأوراق والآلة الكاتبة ثم استطرد :

ــ واعتقد انك ستسر كثيرا من الانباء التى اتيت بها . فعندى هذه المرة معلومات قيمة للغاية . . .

وضحك ثم قال :

ــ والانسان لا يسوؤه طبعا أن يحصل على مكافأة . . .

وكان ظريفا جدا وودودا . ولكن اشندن أحس بنبرة تكلف . وكان جوستاف يتكلم وهو مثبت عينيه الباسمتين من خلال منظاره على وجه اشندن فى يقظة يشوبها شىء خفيف جدا من القلق . . . وقال له اشندن :

ــ لا بد أنك اسرعت جدا فى رحلتك حتى أنك وصلت هنا بعد وصول خطابك ساعات قليلة !

ــ هذا جائز جدا . ومن الواجب أن اخبرك أن الالمان يرتابون فى تسرب المعلومات العسكرية عن طريق المراسلات التجارية العادية . ولذا قرروا أن يستبقوا جميع الرسائل البريدية عند الحدود لمدة ثمان واربعين ساعة

فابتسم اشندن وقال بكل ظرف :

ــ آه . لعلك لهذا السبب اتخذت حيطتك عنــد تاريخ خطـابك فوضعت عليه تاريخا متاخرا عن يوم الارسال بثمان واربعين ساعة ؟

ــ هل فعلت ذلك حقا ؟ ما اشد غبائى لابد اننى اشكل على تاريخ اليوم

فنظر اشندن الى جوستاف وهو يبتسم ، فهذا عذر واه جدا .

فجوستاف رجل أعمال وهو لذلك يعرف تمام المعرفة أهمية التاريخ الدقيق فى عمله التجارى ، والاهمية القصوى فى هذه المهام السرية التى تتعلق بالمخابرات . فمن العناصر الجوهرية لدى القيادة أن تعرف بالضبط اليوم الذى وقعت فيه الاحداث المشار اليها فى التقارير والخطابات

وقال أشندن لجوستاف :

ـ دعنى القى نظرة على جواز سفرك

ـ ولماذا تريد ان ترى جواز سفرى ؟

ـ اريد أن أرى تاريخ ذهابك الى المانيا وتاريخ خروجك منها

ـ ولكن هل تتصور أن جميع سفرياتى من والى المانيا مسجلة فى جواز سفرى ؟

ـ هذا هو المفروض

ـ ان لى وسائلى الخاصة فى اجتياز الحدود بصفة غير رسمية

وكان اشندن على علم دقيق بهذه المسألة . فهو يعرف أن كلا من الجانب الالمانى والجانب السويسرى يحرس الحدود المشتركة فى دقة فائقة لا تعرف التساهل . ولذلك سأل جوستاف :

ـ احقا ؟ ولماذا لا تجتاز الحـــدود الالمانية السويسرية بالوسائل الرسمية المعتادة ؟ اننا الحقناك بالعمل لأن تمثيلك لشركة سويسرية تورد سلعا ضرورية للاسواق الالمانية ييسر لك السفر الى المانيا ذهابا وايابا بصورة طبيعية رسمية لا تثير الشك . وقد افهم أن تجتاز خطوط الحراس الالمـان بتواطؤ خاص . ولـكن كيف يشمل هـذا التواطؤ الحراس السويسريين ؟

فارتسمت على وجه جوستاف نظرة استنكار هائلة ، وقال :

ـ لست افهمك ؟ هل تريد ان تلمح الى اننى قد أكون فى خدمة الالمان ؟ انى اقسم لك بشرفى .. لن أسمح لاحد بتجريح استقامتى !

فقال أشندن بهدوء :

ـ انك لن تكون الرجل الوحيد الذى يقبض اموالا من المعسكرين المتحاربين معا ، ولا يقدم معلومات ذات قيمة الى هؤلاء ولا أولئك

ـ هل تريد ان تقول ان معلوماتى لا قيمة لها ؟ فلماذا اذن أعطيتمونى من تلقاء انفسكم مكافآت لم يظفر بها عميل آخر من عملائكم ؟ ان

الكولونيل نفسه كثيرا ما اعرب عن منتهى الارتياح الى خدماتي

وقال له اشندن في صبر ولبونة :

ــ اسمع يا صاحبي ! لا تحاول أن تتعاظم . ان كنت لا تريد أن تطلعني على جوار سفرك فلن الح عليك في طلبه . ولكن هل تظن اننا نترك المعلومات التي يمدنا بها عملاؤنا من غير مضاهاة او تمحيص ؟ واننا لا نعقب تحركاتهم بوسائلنا الخاصة ؟ مهما كانت النكتة جيدة فلا يمكن أن تستمر نجاحها اذا كرره صاحبها مرات عديدة

وكان اشندن على شيء من الحذق في لعب البوكر ففرر أن (يبلفه) :

ــ لدينا معلومات تفيد انك لم تذهب الى المانيا منذ التحقت بخدمة المخابرات الانجليزية ولكنك كنت تجلس هنا وادعا مطمئنا في بيتك . وان جميع تقريرانك البدبعه مستمدة من مخيلتك الخصبة

ونظر جوستاف الى اشندن فلم تتبين في ملامحه سوى التسامح والطيبة والميل للدعابه . فانفرجت أسارير جوستاف ، وهز كتفيه وقال :

ــ وهل كنت تظنني من الحماقة بحيث اجازف بحياتي في سبيل خمسين جنيها في الشهر ؟ انا احب روجتي !

فانفجر اشندن ضاحكا وقال :

ــ تهنئتي الحارة لك على براعتك وخيالك . فما كل انسان بمستطيع ان يزهو بتمكنه من استغفال مخابراتنا السرية أكثر من سنة !

ــ لقد سنحت لي فرصة كسب نقود من غير صعوبة . وكانت الشركة قد توقفت عن ارسالي الى ألمانيا منذ بداية الحرب . اما المعلومات فكنت التقط بعضها من المندوبين التجاريين الآخرين وهم اصدقائي . وكنت افتح اذني جيدا في حانات البيرة والمطاعم واطالع الصحف الالمانية التي تاتي الى هنا يوميا . وكنت اجد متعة عظيمة في تحرير تلك التقارير والرسائل

ــ بغير شك انها تسلية عظيمة !

ــ والآن ماذا ستصنع ؟

لاشيء . وماذا نستطيع أن نصنع ؟ ولا اظنك تخال أننا سنستمر

في دفع مرتبك الشهري ؟

ـ كلا بالطبع

ـ وبهذه المناسبة هل أكون فضوليا لو سألتك ان كنت قد لعبت نفس اللعبة على الالمان ؟

فصاح جوستاف باستهجان وحماسة :

ـ كلا . كيف خطر ببالك هذا الفرض الفظيع ؟ ان عواطفي كلها في جانب الحلفاء

ـ وما المانع ؟ اموال الالمان كثيرة جدا وليس هناك اى سبب يحول بينك وبين اقتناص ما تريد منهم . وسنقدم لك بين حين وحين معلومات ستجد الالمان مستعدين للحصول عليها

ـ كلا . الالمان قوم عصبيون فيهم عنف ، ومن الخطر ان يهزل الانسان معهم

ـ هذا يدل على انك رجل ذكي جدا . واعلم اننا وان اوقفنا مرتبك الشهري الا اننا على استعداد تام لدفع مكافآت شخصية على اى اخبار حقيقية نافعة لنا . ولكن بعد التحقق منها بوسائلنا الخاصة

ـ سأفكر في هذا الموضوع

واشعل اشندن سيجارة واستغرق في التفكير قليلا ثم قال :

ـ لك ألفان من الفرنكات السويسرية ان استطعت أن تخبرني بما يفعله الالمان عن طريق جاسوس لهم يقيم في لوسرن ، وهو انجليزى يدعى جرانتلي كايبور

فقال جوستاف بعد لحظة صمت :

ـ سمعت هذا الاسم . كم ستبقى هنا في بال ؟

ـ سابقى الوقت الضرورى . سأستأجر حجرة في الفندق واخبرك برقمها . فاذا احتجت الى اخبارى بشيء في هذا الشأن ستجدني دائما في حجرتي في الساعة التاسعة صباح كل يوم وفي الساعة السابعة مساء كل ليلة

فقال جوستاف بحذر .

ـ لا استطيع أن اجازف بالحضور الى الفندق . ولكني استطيع أن أكتب اليك بما أريد

ـ وهو كذلك

ونهض اشندن واقفــا ليصرف وصحبه جوستاف الى باب مسكنه . وقال لاشندن وهو يشد على يده مودعا :

ــ اننا نفترق صديقين أليس كذلك ؟

ــ طبعا طبعا . وستظل تقاريرك فى محفوظاتنا نموذجا لما ينبغى أن يكون عليه التقرير الجيد

▱

وقضى اشندن يومين أو ثلاثة فى النزهة ومشاهدة معالم بال ولكن لم ترق له هذه المناظر . فكان يقضى ساعات طويلة فى المكتبات يقلب صفحات كتب كان يحب أن يقراها لو أن مدى العمر ألف سنة !

وذات مرة راى جوستاف فى الشارع فتجاهل كل منهما صاحبه. وفى اليوم الرابع وصله خطاب مع قهوة الصباح . وكان الظروف يحمل اسم مؤسسة تجارية لا يعرفها ، وبداخله ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة بغير عنوان وبغير امضاء . وابتسم اشندن لان جوستاف لا يعلم فيما يبدو انه يمكن مضاهاة خطوط الآلة الكاتبة مثل مضاهاة الخطوط اليدوية تماما

وبعد ان فرغ من تلاوة الخطاب مرتين بعناية أحرقه بعود ثقاب ثم وضع الرماد فى حوض الغسيل . وحزم بعد ذلك حقائبه وركب أول قطار قاصدا برن

ومن برن ارسل الى الكولونيل برقية بالشفرة عن طريق السفارة الانجليزية . وبعد يومين جاءه رسول من السفارة فى حجرة نومه بالفندق ، وابلغه تعليمات شفوية فى ساعة متأخرة جدا من الليل حتى لا تكون ممرات الفندق مزدحمة . وبناء على هذه التعليمات سافر اشندن بعد أربع وعشرين ساعة بطريق ملتوية قاصدا مدينة لوسرن السويسرية



لفصل الثاني عشـر

الخائن

استأجر اشندن حجرة فى فندق معين صدرت اليه التعليمات المشددة ان ينزل فيه بالذات بمجرد وصوله الى مدينة لوسرن . وبعد ان نفذ اشندن هذه الخطوة ، غادر الفندق ، وكان اليوم رائع الطقس ، من أوائل شهر اغسطس ، والشمس مشرقة والسماء صافية

ولم يكن قد زار لوسرن منذ كان صبيا حديث السن ، فلم يبق فى ذاكرته منها الا صورة غامضة لقنطرة مسقوفة ولتمثال من الصخر يمثل اسدا ، ولكنيسة جلس فيها ساعة من الزمن وقد استولى عليه السأم الممزوج بالرهبة وهو يستمع الى عزف مؤثر على الارغن . فانطلق يجوس خلال المدينة ليجدد مابهت من تلك الذكريات القديمة ، وليستمتع بالرياضة فى ذلك الجو الدافىء

وكانت لوسرن فى مدة الحرب خالية من الزوار والغرباء والاجانب كأنما استعادت عزلتها وهدوءها منـذ كانت سويسرا دولة جبلية لا يرتادها السائحون من مشارق الارض ومغاربها للنزهة والاستجمام

كانت الفنادق مغلقة والشوارع خالية ، والزوارق ذات المجاديف المعروضة للايجار بالساعة تتأرجح فى تراخ عند شط البحيرة وقد سدت الشاطىء تطلب من يستأجرها . والطرق الواسعة المشجرة التى تحف بالبحيرة لا ترى فيها سوى سويسريين يمشون جادين ، وكأنهم يحتفظون بحيادهم حتى فى نزهتهم على الاقدام !

وشعر اشندن بالاعياء من هذه الوحدة الموحشة فجلس فوق مقعد حجرى مواجه للماء ، وراح يتطلع الى المنظر الذى أمامه ، فوجده على جماله لا يخلو من سخف . فالماء شديد الزرقة ، والجبال من وراء البحيرة مثقلة بثلوج ناصعة البياض ، فكأنما جمال المنظر

بصدم العين ويلطم المحيا . وذكرته لوسرن فى تلك الساعة بتلك الازهار الصناعية المصنوعة من الشمع ، المعروضه تحت نواقيس نظيفة لامعة من الزجاج فى صالون أنيق خال من الجالسين !

ومهما يكن من شيء فقد كان عازما على الاستمتاع بالطبيعة ما ظل الجو بديعا مشمسا . فهو لم يكن يرى أى تعارض على الاطلاق بين امتاع نفسه والقيام بخدمة بلاده . وكان فى جيبه جواز سفر جديد تحت اسم مستعار ، فأحس احساسا طريفا بأن له شخصية جديدة . وساعد ذلك على تسليته . فهو ليس الان اشندن وانما هو مخلوق خلقه الكولونيل ر اختراع مستحدث تمخضت عنه مخيلة جندى ...

ونهض اشندن وتهادى متجها نحو الفندق . وكان هذا الفندق من الفنادق الالمانية الصغيرة ، ويعتبر من فنادق الدرجة الثانية ، ولكنه نظيف كل النظافة ، وحجرة النوم التى استأجرها تطل على منظر بديع ، وأثاثها من خشب الشربين المطلى بقشرة لامعة . ولو كان الجو رطبا باردا ؛ لكانت الحجرة كئيبة اما فى هذا الجو الدافىء المشمس فهى مريحة للنفس باعثة على المرح ...

وفى بهو ذلك الفندق موائد صغيرة متناثرة جلس الى احداها وطلب زجاجة بيرة . وكانت مديرة الفندق ، وهى زوجة صاحبه ، متشوقة لمعرفة السبب الذى حدا بهذا الانجليزى للحضور فى هذا الموسم الميت الى لوسرن لقضاء بضعة ايام . وكان اشندن مستعدا بل ميالا لاشباع فضولها . فاخبرها أنه ابل أخيرا من اصابة شديدة بحمى التيفويد ، ونصحه الطبيب بقضاء فترةالنقاهه فى هذا الفصل البديع من السنة بمدينة لوسرن ، كى ينعم بجمال الطقس والهدوء البعيد عن ضجة الزحام ومتاعبالحرب . واخبرها أيضا أنه كان موظفا فى ادارة الرقابة على الانباء بلندن ، ولذا انتهز الفرصة لعل اقامته فى لوسرن فى فندق المانى تساعده على محو الصدأ عن لغته الالمانية

وطلب منها عرضا أن ترشح له معلما المانيا . وكانت ربة الفندق سيدة سويسرية شقراء ضخمة ، ذات وجه بشوش ، وفيها ميل الثرثرة . فأيقن اشندن انها ستذيع ما أفضى اليها به من معلومات

ورأى أنه صار من حقه الطبيعى ، بعد أن اشبع فضولها بالاجابة عن أسئلتها الكثيرة المتلاحقة ، ان يوجه اليها بضعة أسئله . ووجد لديها ميلا للافاضة في موضوع الحرب التى جعلت فندقها خاليا تقريبا ، مع أنه في مثل هذا الشهر من السنوات السابقة للحرب ، كان الفندق يكتظ بالنزلاء بحيث يقتضى الامر البحث عن غرف لهم في البيوت المجاورة ... وذكرت له أن الكثيرين يأتون لتناول وجبات الطعام فى مطعم الفندق ، ولكن لايقيم لديها بصفة دائمة الا مجموعتان من النـاس ، احداهما مكونة من زوجين ايرلنديين يقيمـان طـول السنة في فيفاى ولكنهما يقضيان دائما شهور الصيف في لوسرن . والمجموعة الاخرى عبارة عن رجل انجليزى وزوجته . وهذه الزوجة المانية ولذا اضطر الزوجان في مدة الحرب للاقامة في بلد محايد ..

وكان أشندن حريصا على الا يظهر اقل فضول بخصوص هـذا الانجليزى وزوجته الالمانية ، لانه عرف من الوصف أن هذا الرجل هو جرانتلى كايبور ضالته المنشودة ... ولكن ربة الفندق أخبرته من تلقاء نفسها أن الزوجين يقضـيان معظم النهـار في التجول بين الجبال ، لان الهر كايبور عالم في النبات ، وله اهتمام عظيم بالازهار البرية في هذا الاقليم . وزوجته امرأة لطيفة للغاية شديدة الحساسية نحو مركزها الدقيق ، وما تسـببه جنسيتها الالمانية من المتاعب لزوجها . ولكن بطبيعة الحال لا يمكن أن تدوم الحـرب الى الابد يا سيدى ...

وانصرفت ربة الفندق لبعض شأنها وصعد أشندن الى حجرته. وكان موعد العشاء في الساعة السابعة ، بيد أن اشندن كان حريصا على النزول الى قاعة الطعـام قبل جميع النـاس ، كى يستطيع استعراض وجوه جميع من يتناولون الطعام في لحظة دخولهم الى القاعة . ولذا نزل بمجرد سـماع الجرس الذى يدعو النـاس الى الطعام

وكانت القاعة خالية من كل زخرف ، عاطلة من مباهج الترف ، جدرانها بيضـاء ناصعة ، وفوق كل مائدة من الموائد الصغيرة باقة من الزهر . فكان كل شيء على الجملة نظيفا جـدا وانيقا جـدا ، ولكنه يوحى بسوء طعم الاكل الذى سيقدم في هـذا الجو . وفكر

اشندن فى أن يعوض نفسه عن ذلك بطلب زجاجة من احسن أنواع نبيذ الراين ، ولكنه لم يشأ ان يجازف بلفت النظر الى شخصه بهذا الاسراف بعد أن راى فوق ثلاث موائد انصاف زجاجات من النبيذ الرخيص ، وادرك ان زملاءه يشربون بتقتير شديد على انفسهم ، ولذا اكتفى بطلب كأس كبيرة من البيرة

ودخل القاعة بضعة اشخاص كان واضحا انهم سويسريون جلس كل واحد منهم الى مائدته الصغيرة وفتحوا الصحف امامهم وجعلوا يقرءون اثناء تناول الحساء ، وبعد ذلك دخل رجل طويل القامة متقدم جدا فى السن ، له شعر أبيض كالثلج ، وشارب أبيض متهدل، ومعه سيدة عجوز قصيرة بيضاء الشعر ترتدى السواد . فادرك اشندن انهما الكولونيل الايرلندى وزوجته اللذان حدثته عنهما ربة الفندق

وجلس الزوجان ، وصب الكولونيل لامرأته كوبا من النبيذ ، ثم صب لنفسه كوبا آخر ثم انتظرا فى سكون الى ان قدمت اليهما الخادمة الريفية ، المتلئة القد والوجه ، وجبة الطعام

واخيرا وصل الشخصان اللذان كان أشندن فى انتظار قدومهما ، وكان اشندن يتظاهر جهد استطاعته بقراءة كتاب المانى . وبمجهود شديد فى ضبط نفسه ، سمح لنفسه أن يرفع عينيه مدة لحظة واحدة عند دخولهما ، ثم عاد الى الكتاب الالمانى المفتوح امامه

واظهرته لمحته هذه على رجل فى نحو الخامسة والاربعين ، له شعر قصير اسود لا يخلو من التجاعيد تتخلله شعرات بيضاء ، متوسط الطول ، ولكنه يميل للبدانة ، وله وجه عريض احمر حليق . يرتدى بذلة رمادية وقميصاً ذا ياقة واسعة مفتوحة . وكان يتقدم زوجته فى السير . ولم ير منها أشندن الا ما اشعره انها امراة المانية غير محبة للظهور ، يعلو ثيابها غبار كثير

وجلس جرانتلى كايبور الى مائدته وشرع يشرح للخادمة بصوت مرتفع كيف أنهما مشيا مسافات طويلة ، وأنهما صعدا جبلا ما لم تكن لاسمه اهمية لدى اشندن ولكن هذا الاسم أثار لدى الخادمة الدهشة والحماسة

وبعد ذلك قال كايبور بلهجة المانية طلقة تشوبها لكنة انجليزية

واضــحة ، انهما تاخرا كثيرا ، ولذا لم يتســع الوقت امامهما كى يسنحما ويبدلا ثيابهما واكتفيا بغســل أيديهما ، وكان صــوته فى الكلام رنانا ولهجته مرحة :

ــ هيا احضرى طعامنا بسرعة ، فنحن فى شدةالجوع . واحضرى بيرة . هاتى ثلاث زجاجات كبيرة . رباه ما أشد ظمئى !

ويبدو عليه انه رجل يتمتع بحيوية مفرطة ، فاضفى دخوله على تلك القاعة الراكدة الكئيبة المفرطة النظافة جوا بعث فيها الحياة . وشرع يتحدث الى زوجته بالانجليزية بصوت يستطيع أن يسمعه جميع الموجودين . ولكنها سرعان ما قاطعته بملاحظة أفضت بهــا اليه فى صوت خافت

وكف كايبور عن الكلام وشــعر اشــندن أن عينيه تتجهان الى ناحيته . ان المسز كايبور فطنت الى وجود شخص غريب فوجهت نظر زوجها الى ذلك . وقلب اشــندن صفحة الكتــاب الذى كان يتظاهر بقراءته ، ولكنه احس ان نظرة كايبور منبنة عليه بالحــاح شديد

ولما كلم كايبور زوجته بعد ذلك كان صوته منخفضا جدا حتى أن اشندن لم يستطع أن يسمع باية لغة من اللغتين كان يخاطبها . وعندما جاءتهما الخادمة بالحساء ســألها كايبور ســؤالا بصــوت منخفض أيضا . وكان واضحا انه يسألها عن اشــندن وما عساه يكون . ولم تلتقط اذن اشندن المرهفة من اجابة الخادمة ســوى كلمة « انجليزى »

وفرغ شخص أو شــخصان من عشائهما وانصرفا . ثم نهض الكولونيل الايرلندى العجوز وزوجته العجوز عن مائدتهما . وتنحى الكولونيل كى يفسح لزوجته الطريق . ان هذين الزوجين اكلا بأناة من غير أن يتبــادلا كلمة واحــدة . ومشت الزوجة على مهل الى الباب . أما الكولونيل فوقف يلقى كلمة الى سويسرى من الموجودين لعله محام او موثق عقود . فلما وصلت الزوجة الى الباب وقفت كأنها نعجة مسالمة فى انتظار زوجها كى يفتح لهــا البــاب . وأدرك اشندن من هذا المسلك انها لم تفتح فى حياتها الباب لنفسها . وبعد

دفيقة جاء الكولونيل العجوز الى الباب ففتحه ومرقب منه وهو فى اثرها

واغراه هذا المنظر فاسترسل فى تصور حياتهما معـا : وبدأ فى بناء الحوادث والشخصيات . ولكنه لم يلبث أن رد نفسه بحسزم عن الاسترسال فى ترف الخلق . واستأنف تناول الطعام

ولما خـرج من البهو ، رأى اشـندن كلبا من نوع البول تيرير مربوطا الى قائمة احدى المناضد . فلما مر به مد يده بصورة آلية كى يداعب أذنى الكلب المتدليين الناعمتين . وكانت ربة الفنـدق واقفة اسفل السلم ، فسألها اشندن :

ـ لمن هذا الحيوان الجميل ؟

فقالت ربة الفندق فى حماسة :

ـ انه يخص الهر كايبـور . واسـمه فريتزى . والهر كايبـور يقول أن نسب فريتزى أعرق بكثير من سلسلة نسب ملك انجلترا !

وجعل فريتزى يمسح بساق أشـندن ويتحسس بطرف انفه الرطب راحة يده مسرورا بملاطفته

وصعد أشندن الى حجرته كى يأتى بقبعته ، ولما نزل راى كايبور واقفا عند مدخل الفندق يتحدث الى ربته . ومن الصمت المفاجىء الذى ساد ادرك ان كايبور كان يسأل السيدة عنه

ولما مر بينهما الى الشارع راى بطرف عينه أن كايبور ينظر اليه نظرة ارتياب ، واذ بذلك الوجه الضاحك وقد صار آية على الدهاء

وتركه اشندن واستأنف مسيره الى أن وجد حانة ذات شرفة يستطيع أن يتناول فيها قهوته فى الهواء الطلق ، وبعد القهوة قرر أن يعوض نفسه عن زجاجة البيرة التى تجرعها على مضض بدافع من الواجب على مائدة الغداء ، فطلب أفخر كونياك يمكن أن تقدمه تلك الحانة

والحقيقة انه كان مسرورا لانه أخيرا بدأ يواجه الرجل الذى طـالما سمع عنه الكثير . وكان فى مرجوه ان ينعقد بينهما صلة التعارف فى مدى يوم أو يومين . وهو يعلم انه ليس من العسير اطلاقا ان يتعرف اى انسان بشخص يقتنى كلبا عزيزا عليه . بيد انه لم يكن فى عجلة من امره . ولذا سيترك الامور تجرى فى أعنتها . فالهدف

الذى يسعى الى تحقيقه لا يمكن أن يسمح له بالتعجل فى العمل

واستعرض اشـندن الظروف التى تحيط بالمسألة . فوجد أن جرانتلى كايبور انجليزى الجنسية ولد فى برمنجهام وهو الان فى الثانية والاربعين من عمره . وروجته التى اقترن بها منذ أحد عشر عاما المانية المولد المانية الابوين . وهذه هى المعلومات العامة عنهما

اما المعلومات الخاصة عن ماضى حيـاة الرجل فهى مكتـوبة فى وثيقة سرية تذكر انه بدأ الحياة فى مكتب محـام فى برمنجهام ، ثم دخل ميدان الصحافة . واقترن اسمه بعـدئذ بصحيفة انجليزية تصدر فى القاهرة ، ثم بصحيفة اخـرى تصدر فى شـنغهاى . وفى شنغهاى أتهم بمحاولة اختلاس اموال بطريقة الاحتيـال وادين ، وحكم عليه بالسجن فترة غير طويلة

وبعد اطلاق سراحه اختفى كل اثر له مدة عامين ، الى ان ظهر مرة اخرى فى مكتب لادارة البواخر فى مرسيليا . ومن مرسـيليا انتقل للعمل فى ادارة اخرى للبواخر بهامبورج . وهناك تزوج ثم انتقل للعمل فى لندن ، فانشأ مكتبا للتصدير والاسـتيراد ، ولكنه فشل بعد زمن قصير واعلن افلاسه ، فعـاد الى الصحافة . ولما اعلنت الحرب ترك الصحافة للعمل مرة أخرى فى ادارة البواخر . وفى اغسطس سنة ١٩١٤ كان يعيش مع زوجته حياة هادئة جدا فى ميناء سوثهامبتن

وفى بداية سنة ١٩١٥ أبلغ رؤساءه أن جنسية زوجته الالمانيـة تجعل موقفه حـرجا لا يطاق . وكان رؤسـاؤه راضين عن عمله ومدركين لما يعانيه بسبب زوجته الالمانيه ، فنقلوه الى فرع الشركة فى جنوه . وظل هنـاك الى ان دخلت ايطاليا الحـرب فى جانب الحلفاء ، فاستقال واجتاز الحدود ليقيم فى سويسرا بأوراق رسمية سليمة لا غبار عليها

كل ذلك يدل على أن الرجـل مطعـون فى أمانته ، غير ميـال للاستقرار ، وليس له مورد مالى ثابت . ولكن ذلك لم يكن يعنى أحدا الى ان اتضح ان كايبور كان بالتأكيد منذ بداية الحرب ، وربما قبل ذلك بسنوات ، جاسوسا فى خدمة ادارة المخابرات الالمانية . وكان المرتب الثابت الذى يتقاضاه من تلك الادارة هو أربعون جنيها

فى الشهر

ومع ان هذا فى حد ذاته أمر خطير ومثير الا أنه لم تتخذ أية خطوات ايجابية ضده الى أن دخل فى المسألة عنصر جديد . فلو انه اكتفى بأن ينقل الى الالمان الانباء التى يمكنه الحصول عليها محليا فى سويسرا ، لما تحركت المخابرات الانجليزية للقضاء عليه ، فليس فى ذلك ضرر يستحق المبالاة . بل لعله كان من الممكن استخدامه لتبليغ بعض المعلومات المراد ايهام الالمان بها

ولم يكن كايبور يدرى ان امره كتشف . وكانت خطاباته وهى كثيرة جدا تخضع لرقابة دقيقة . والاخصائيون فى المخابرات الانجليزية لا يستعصى عليهم حل اية شفرة . ومع مضى الوقت كان من المستطاع معرفة فلول الجواسيس الذين يتعاملون معه فى انجلترا . وفى ذلك فائدة كبيرة . ولكن كايبور جلب على نفسه غضب الكولونيل . ولو أنه عرف معنى ذلك ، لارتجف قلبه ، لأن الكولونيل رجل لا يتورع عن شيء اذا ثارت ثائرته على احد

وجليه الامر ان كايبور تعرف فى زيوريخ بشاب اسمه جوميز ، دخل منذ مدة قصيرة فى خدمة المخابرات الانجليزية . واستطاع كايبور بجنسيته الانجليزية ان يخدع الفتى الاسبانى ، ويكسب ثقته ، ويبتز منه المعلومات ، الى أن عرف انه يعمل فى الجاسوسية لحساب انجلترا . وترتب على ذلك أن كايبور وشى به الى الالمان ، فراقبوه عن كثب وعندما سافر الى المانيا وضبط متلبسا بتصدير خطاب مكتوب بالشفرة ، وحل الالمان رموز تلك الشفرة ، حاكموه وأدانوه ورموه بالرصاص !

وكان من المزعج ان تفقد انجلترا جاسوسا نافعا مخلصا فى عمله وكان أسوأ من هذا أن تضطر لتغيير شفرة جواسيسها فى تلك المنطقة . وثارت ثائرة الكولونيل ، ولكنه كظم غيظه ورغبته فى الانتقام ، لان مصلحة المخابرات عنده فوق كل اعتبار . فلو أن كايبور كان يخون وطنه حبا فى المال فقط ، لكان من الممكن اقناعه بأخذ اموال انجليزية اكثر من الاموال الالمانية كى يخون مخدوميه . وسيكون ذلك سهلا عليه بعد أن سلم اليهم الجاسوس الانجليزى الاسبانى الجنسية جوميز ، فاثبت لهم اخلاصه لقضية المانيا ...

وفكر الكولونيل فى هذا الاحتمال ثم كلف اشندن بالاتصال به ليحكم هل يمكن الاعتماد على كايبور فى خدمة المخابرات الانجليزية أم لا . فان وجده صالحا لهذا فعليه أن يجس نبضه ويقترح عليه ما يراه مناسبا

وهى مهمة تحتاج الى لباقة شديدة ومعرفة دقيقة بنفوس البشر . اما اذا اتضح لأشندن ان كايبور لا يمكن شراء اخلاصه ، فعليه أن يرصد حركاته ويخطر بها الرؤساء . وكانت المعلومات التى حصل عليها أشندن غامضة ولكنها هامة جدا . والطريف فيها أن رئيس المخابرات الالمانية فى برن مستاء فى المدة الاخيرة من كسل كايبور وعدم انتاجه . وكان كايبور يطالب بعلاوة ، ولكن الرئيس الالمانى فى برن رفض طلبه ، وصارحه بأنه يجب أن يبدى مزيدا من النشاط ، ثم اقترح عليه ان يعود الى انجلترا

وفى ذلك المعرض قال الكولونيل لأشندن بعد أن اطلعه على هذه المعلومات :

ــ ان استطعت ان تستدرجه الى اجتياز الحدود تكون قد نجحت غاية النجاح

فسأله اشندن متعجبا :

ــ وكيف بحق الشيطان تتوقع منى أن أقنعه بوضع عنقه فى حبل المشنقة ؟

فضحك الكولونيل ضحكة بعثت القشعريرة فى جسم أشندن وقال :

ــ انها لن تكون مشنقة ... بل كتيبة من الرماة !

ــ ولكن كايبور رجل ماكر

فصاح الكولونيل فى ضيق :

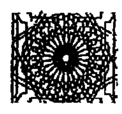
ــ فلكن انت امكر منه . تبا لك !

وقرر اشندن الا يتخذ اية خطوات نحو التعرف بكايبور . وكل ما عليه هو تمهيد السبيل امام كايبور كى يخطو الخطوات الاولى نحو التعرف به . واذا استبطأ الكولونيل النتائج فلن يحيد عن هذه الخطة

لقد افهم ربة الفندق انه موظف فى ادارة الرقابة الانجليزية ، وقد

نقلت حتما هذه المعلومات الى كايبور . فلا شك انه ان لم يكن عاجلا فاجلا سيسعى الى مجادبة اطراف الحديث مع انجليزى يعمل فى ذلك القطاع الحساس من الادارة الحربية

وفى الوقت نفسه كان الكولونيل قد زود اشندن بكمية من المعلومات التى لن تفيد الالمان فى شىء . ولما كان اشندن يحمل هذه المرة اسما مستعارا وجواز سفر مزيفا ؛ فليس من المحتمل ان يفطن كايبور الى انه بازاء جاسوس انجليزى





الفصل الثالث عشر

دروس

ولم يطل انتظار اشندن . ففي اليوم التالى كان جالسا بمدخل الفندق يحتسى قدحا من القهوة ، وقد ثقــل جسمه ، وكاد يغلبه النعاس على صحوه بعد وجبة غداء دسمة ، عندما برز آل كايبور من قاعة المائدة

وصعدت مسز كايبور الى حجرتها ، أما كايبور ففك عقال كلبه الذى أخذ فى الوثب والقفز وبصــورة ودية وثب على اشــندن . فصاح كايبور :

ــ تعال هنا يا فريزى ...

ثم التفت الى اشندن وقال :

ــ انى آسف جدا ، ولكنه لطيف للغاية

فقال أشندن :

ــ أوه . لابأس . انه لن يؤذينى

ووقف كايبور عند الباب ، وقال :

ــ انه من نوع البول تيرير . وهــو نــوع نادر الوجود فى القارة الاوروبية

ويبدو انه كان وهو يتكلم يتفحص أشندن . ثم صاح بالخادمة :

ــ فنجان قهوة من فضلك يا آنسة

والتفت الى اشندن وقال له :

ــ لقد وصلت أخيرا . أليس كذلك ؟

ــ بلى . وصلت بالامس

فتصنع كايبور الدهشة وقال :

ــ احقا ؟ انى لم ارك بالامس فى قاعة الطعام . هل تنوى الاقامة طويلا ؟

ـ لا ادرى فقد كنت مريضا وجئت الى هنا كى استرد قواى

وجاءت الخادمة بالقهوة . فلما رات كايبور يتحدث الى اشندن وضعت صينية القهوة فوق المائدة الجالس اليها اشندن . فضحك كايبور ضحكة تنبىء عن حرج يسير

ـ انا لا اريد أن اقحم نفسي عليك . لكنى لا اعلم لماذا وضعت الخادمة قهوتى فوق مائدتك

فقال اشندن :

ـ ارجوك أن نجلس

ـ هذا كرم كبير منك . فقد عشت فى القارة مدة طويلة حتى لقد اصبحت انسى ان مواطنى يعتبرونها صفاقة من المرء ان يكلمهم بغير معرفة سابقة ، وبهذه المناسبة هل انت انجليزى أم امريكى ؟

فقال اشندن :

ـ بل انجليزى

وكان أشندن بطبيعته رجلا خجولا جدا . وقد اجتهد عبثا ان يشفى نفسه من ذلك النقص الذى لا يتفق مع سنه . لكنه فى بعض الاحيان يستغل هذه الصفة استغلالا حسنا . فأخذ يشرح فى تردد وتلعثم الحقائق التى اخبر بها ربة الفندق فى اليوم السابق وكان موقنا انها نقلتها الى كايبور بحذافيرها . ولما انتهى منها قال كايبور :

ـ انك ما كنت لتأتى الى مكان افضل من لوسرن . فهى واحة من واحات السلام فى هذا العالم الذى أنهكته الحرب . فانك وانت هنا فى وسعك أن تنسى تقريبا كل النسيان أن هناك حربا عالمية ناشبة . وهذا هو السبب فى أننى جئت للاقامة هنا . وانا رجل مهنته الصحافة

فقال اشندن وهو يبتسم ابتسامة خجلى :

ـ لقد خطر ببالى وانا اسمعك تتكلم أنك تمارس الكتابة

والحقيقة انه كان واضحا أن تعبيرا مثل « واحة من واحات السلام فى عالم انهكته الحرب » لا يمكن أن يكون مما اكتسبه فى مكاتب البواخر ...

واسطرد كايبور وعلى وجهه امارات الجد :

ـ والمسألة انني متزوج من سيدة المانية

فقال اشندن بسذاجة :

ـ حقا ؟

ـ ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك من هو اشد وطنية مني . فأنا انجليزى دما ولحما . ولست أبالى أن أقول لك ان الامبراطورية البريطانية فى اعتقادى هى أعظم أداة للخير عرفها العالم فى تاريخه كله . ولكن زواجي من سيدة المانية يجعلنى أرى بصورة طبيعية أن هناك وجهة نظر اخرى . ولست بحاجة الى أن تخبرنى ان للالمان عيوبهم . ولكنى بصراحة لست مستعدا للقول بأنهم الشيطان مجسدا ... وفى بداية الحرب قاست زوجتى الامرين ونحن فى انجلترا . وأنا شخصيا لا استطيع من جانبى ان الومها لو انها شعرت بالمرارة لذلك السبب . فكل انسان هناك كان يظنها جاسوسة . ولا شك أن ذلك سيجعلك تضحك كثيرا عندما تعرف شخصيتها ، فهى نموذج ربة البيت الالمانية التى لا يعنيها من العالم كله شيء سوى بيتها وزوجها وطفلنا الوحيد فريتزى .!

وربت كايبور على كلبه وأطلق ضحكة صغيرة :

ـ نعم يا فريتزى . أنت طفلنا . اليس كذلك ؟

ثم استأنف حديثه الى اشندن :

ـ وطبيعى ان هذا الموقف جعل مركزى حرجا جدا فى انجلترا . وكنت متصلا بعدد من أهم الصحف . فلم يكن محرروها مستريحين للوضع . ولا اطيل عليك أننى رايت من الاكرم لى أن استقيل وآتى للاقامة فى بلد محايد الى أن تنتهى العاصفة . وأنا وزوجتى لا نتناقش فى موضوعات الحرب اطلاقا . مع أنها اكثر تسامحا منى واكثر استعدادا للنظر الى هذه الكارثة العالمية من وجهة نظرى

ـ هذا غريب حقا . فالقاعدة أن النساء أشد تعصبا من الرجال

ـ ان امراتى شخصية فذة جدا . وأحب أن اقدمها اليك . وبهذه المناسبة لا أدرى ان كنت تعرف اسمى : جرانتلى كايبور

فقال اشندن :

ـ واسمى سومرفيل

ثم حدثه عن العمل الذى كان مضطلعا به فى ادارة الرقابة . وخيل

اليه أن ذكر وظيفته كان له صدى فى بريق عينى كايبور . ثم اخبره انه ينشد شخصا يعطيه دروسا فى المحادثات الالمانية كى ينتهز الفرصة وينفض الصدأ عن معلوماته فى تلك اللغة

واثناء الكلام خطرت له فكرة ، فنظر الى كايبور ورأى أن الفكرة نفسها خطرت له . اى انها خطرت لكليهما فى وقت واحد . ومفاد هذه الفكرة ان مسز كايبور تصلح استاذا ممتازا لاشندن

ـ لقد سالت ربة الفندق ان كانت تستطيع ان تنشد لى شخصا ، فقالت انها تظن ذلك مستطاعا . فيجب أن أعيد عليها السؤال . لأنه ليس من الصعب ان تجد رجلا مستعدا للحضور كى يحدثنى بالالمانية ساعة كل يوم

فقال كايبور :

ـ انا شخصيا لا آخذ بتزكية ربة الفندق فى هذا . فأنت بحاجة الى شخص يتكلم الالمانية الجيدة بلهجة اهل الشمال السليمة . فى حين ان ربة الفندق لا تتكلم الا باللهجة السويسرية . سأسال زوجتى ان كانت تعرف لك أحدا . وزوجتى امرأة متعلمة تعليما عاليا جدا وتستطيع أن تثق بتزكيتها

ـ هذا كرم عظيم منك

وجعل أشندن يرمق جرانتلى كايبور على مهل ، فلاحظ أن عينيه الصغيرتين الخضراوين فيهما مكر شديد لا يتفق مع الصراحة والمرح الباديين فى ملامح وجهه . فهما عينان سريعتان ثاقبتان . ولكن اذا ومض فى ذهنه خاطر مفاجىء تثبت نظرتهما فجأة . فهما عينان لا توحيان بالثقة . اما وجهه الطيب الباسم العريض ، وجسمه البدين ، وصوته المرح العميق ، فتعوض له ذلك النقص

وكان واضحا أنه الان يبذل غاية جهده كى يبدو لطيفا انيسا . والحقيقة ان أشندن وجد صعوبة شديدة وهو يستمع اليه فى تذكر انه بازاء جاسوس عادى ، رضى أن يبيع وطنه بأربعين جنيها فى الشهر

وكان أشندن يعرف جوميز الشاب الاسبانى الذى خانه كايبور . وجوميز فتى عالى الهمة محب للمغامرة ، ولم يقبل القيام بخدمة المخابرات الانجليزية رغبة منه فى المال بل شوقا الى جو المغامرة

والاثارة الرومانسية التي تقترن بالشعور بالاسهام في قهر الالمان . ولم يكن هينا على أسندن أن ينصوره دفينا في خندق الماني على عمق ست أقدام تحت فناء السجن . لانه كان رشيقا مرحا حافلا بعصارة الحياة . وتساءل اشندن بينه وبين نفسه الم يشعر كايبور بغصة تعترض حلقه وهو يسلمه الى منيته

وسأل كايبور اشندن وقد أثار الغريب اهتمامه :

ـ اظنك تعرف شيئا من اللغة الالمانية ؟

ـ طبعا . فقد كنت طالبا بالمانيا فترة من الوقت ، وكنت اتكلم الالمانية بطلاقة ، ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد ، فنسيت الكلام بها . ولكني أستطيع ان أقرأ بها في يسر

ـ آه . لقد لاحظت انك كنت تقرأ كتابا المانيا مساء أمس

ياله من احمق ! كان ينبغي ان يكون ذلك الكذوب ذكورا . فمنذ هنيهة قال لاشندن انه لم يره بالامس . ولكن أشندن كان من الحصافة بحيث لم يظهر على وجهه ما يدل على فطنته الى ذلك التناقض . وكان عليه ايضا ان يتعظ بغلطة كايبور فيكون على حذر من الوقوع في مثلها . ومن يدري ؟ لعل كايبور تعمد تلك الغلطة كي يقرأ أثرها على سحنة اشندن

ونهض كايبور قائلا :

ـ ها هي ذي زوجتي . فنحن نذهب كل عصر لنتسلق أحد الجبال . واستطيع أن أدلك على نزهات بديعة سيرا على الاقدام . والازهار حتى في هذا الوقت من السنة رائعة الجمال

فتنهد اشندن وقال :

ـ اخشى انني لابد ان اتريث الى ان أسترد مزيدا من عافيتي .

ومما ساعد أشندن على هذا الكذب أن وجهه كان شاحبا بطبيعته ولا تبدو عليه قوته الحقيقية

وهبطت مسز كايبور السلم وانضم اليها زوجها فسارا في الشارع وفريتزي يجري ويقفز بين أيديهما تارة ومن خلفهما تارة اخرى . ولاحظ اشندن ان كايبور بدا على الفور في الحديث الى زوجته بطلاقة . فلا شك في أنه كان يخبرها بنتائج محادثته مع أشندن

ونظر اشندن الى الشمس المشرقة في بهاء على البحيرة ، والنسيم الرقيق يداعب في هوادة أوراق الاشجار الخضراء . فكان كل شيء يدعو الى رياضة المشي . ولكنه نهض وصعد الى حجرته ، وارتمى على فراشه ، واستغرق في نوم لذيذ

ونزل الى قاعة المائدة في المساء لتناول العشاء ، فوجد آل كايبور يختمان وجبتهما ، وفي طريقهما للانصراف من القاعه وقف كايبور امامه ودعاه لتناول القهوة معهما في البهو . فلما لحق بهما هنالك وقف كايبور وقدمه الى زوجته ، فانحنت في تصلب ولم ترد على ترحيب أشندن المهذب ولو بابتسامة . فلم يكن من العسير ان يدرك ان مسلكها عدائي تماما . وقد شعر أشندن بالراحة لذلك

وكانت مسز كايبور امرأة عاطلة من الجمال تقارب الاربعين من عمرها ، بشرتها جافة خشنة وملامحها غير محددة ، وشعرها مصفف في حلقة حول رأسها على طراز ملكة بروسيا في عصر نابليون . وهي ذات قامة ربعة اقرب الى الامتلاء منها الى البدانة ، متينة البنية . ولكن لا يبدو عليها الغباء بل بالعكس تبدو امرأة ذات طبع قوي

وكان أشندن قد قضى من حياته شطرا كافيا في المانيا فعرف نسوة من ذلك النمط . ولم يكن ليدهشه ان تجمع بين القدرة والكفاءة في أعمال البيت ، والبراعة في الطهو ، والمهارة في تسلق الجبال ، والاحاطة بالمعارف العامة والثقافة الرفيعه

وكانت ترتدي ثوبا أبيض زاد في وضوح سمرة عنقها ، وقد انتعلت حذاء ثقيلا . وكلمها كايبور بالانجليزية فأخبرها بلهجة مرحة بما أحاطه به أشندن من معلومات عن نفسه ، كأنها لم تعرف ذلك منه من قبل . ولكنها كانت تصغي متجهمة

والتفت كايبور الي أشندن فقال له بوجه باسم وعينين نفاذتين لا تستقران من شدة التيقظ :

— أظنك اخبرتني انك تفهم الالمانية

فقال أشندن :

— نعم . فقد كنت طالبا مدة من الزمن في جامعة هايدلبرج

فقالت مسز كايبور بالانجليزية وقد ظهرت على سحنتها امارة يسيرة من الاهتمام :

ــ حقا ؟ اني اعرف هايدلبرج معرفة جيدة . لانى قضيت سنة كاملة تلميذة فى احدى مدارسها

وكانت انجليزيتها صحيحة ، ولكن مخارج الحروف حلقية غير مستحبة . وانبرى اشندن يطرى المدينة الجامعية العتيقة ، وجمال المناظر فى المنطقة المحيطة بها . فكانت تستمع لما يقول من عليــاء شعورها التيوتونى بالتفوق ، فى تسامح واغضاء لا فى حماسة . ثم قالت :

ــ من المعروف تماما ان وادى نكار من أجمل المواضع فى العالم اجمع

وعندئذ قال كايبور :

ــ لم اخبرك يا عزيزتى ان مستر سومرفيل يبحث عن شخص يلقنه دروسا فى المحادثات الالمانية مدة اقامته هنا . فقلت له أنك ربما استطعت ان ترشحى له معلما

فقالت الالمانية :

ــ كلا . انا لا اعرف احدا يمكن ان أزكيه عن ثقــة . فاللهجة السويسرية كريهة كراهة لا توصف . ولن يستفيد بل يضار مستر سومرفيل اذا تحدث مع سويسرى بالالمانية

فقال كايبور :

ــ لو كنت فى مكانك يا مستر سومرفيل لحــاولت ان اغرى زوجتى بتلقينى هذه الدروس . فهى ان جــاز لى ان اقول امرأة مثقفة جدا ومتعلمة تعليما عاليا

فصاحت زوجته :

ــ أخ ! ليس لدى وقت لهذا يا جرانتلى . فعندى عملى الخاص

وادرك أشندن ان الفرصة اتيحت له . فالفخ امامه ، وكل ما عليه ان يتردى فيه . فالتفت الى مسز كايبور وقال بلهجة اجتهد أن يشوبها الخجل والتوسل والتواضع :

ــ انه لشىء عظيم حقا لو انك تكرمت بتلقينى هذه الدروس سأعتبرها خدمة جليلة وخطوة عظيمة . وأنا بطبيعة الحال لا اريد ان اتدخل فى عملك ، فالغرض الرئيسى من وجودى هنا هو استردا عافيتى . وليس عندى اى عمل يشغلنى . وســوف يوافقنى اى

موعد تحددينه لهذه الدروس على حسب أوقاتك

وأحس بشرارة رضا وسرور تنتقل من الزوج الى الزوجة . ولمح وميضا خفيفا فى عينى مسز كايبور الزرقاوين . وقال كايبور :

ـ انها طبعا ستكون مسألة عملية على اساس واضح . فليس هناك ما يدعو اطلاقا الا تجنى زوجتى الطيبة شيئا من المال . فهل تعتقد ان عشرة فرنكات سويسرية فى الساعة أجرا عاليا ؟

فقال اشندن على الفور :

ـ اطلاقا . بل انى اعتبر نفسى محظوظا اذا ظفرت باستاذة من الدرجة الاولى لقاء هذا المبلغ

فقال كايبور لزوجته بحماسة :

ـ وما قولك الان يا عزيزتى ؟ انك بالتأكيد تستطيعين ان توفرى من وقتك ساعة كل يوم كى تسدى الى هذا السيد مكرمة . فيعلم ان ليس جميع الالمان شياطين كما يظنونهم فى انجلترا

وقطبت مسز كايبور حاجبيها تقطيبا شديدا جعل اشندن يدرك الجو الذى ينتظره فى ساعة الدرس اليومية التى سيقضيها فى تبادل الاحاديث معها . والله وحده يعلم كيف سيجهد دماغه بحثا عن موضوعات للكلام مع هذه المراة الثقيلة الواجمة !

ورآها تبذل مجهودا شديدا كى تقول :

ـ سيسرنى غاية السرور ان اعطى مستر سومرفيل دروسا يومية فى المحادثة باللغة الالمانية

فقال كايبور مهللا :

ـ مبروك يا مستر سومرفيل . لقد ربحت هذه الصفقة . والان متى تريد ان تبدا الدروس ؟ ايوافقك الغد ؟

ـ فى اية ساعة ؟

ـ الساعة الحادية عشرة

ـ هذه الساعة تناسبنى جدا اذا كانت تناسب مسز كايبور

فقالت بعدم اكتراث :

ـ انها ساعة كاية ساعة اخرى

وتركهما اشندن ليناقشا على سجيتهما النتيجة الرابحة التى

بمخضب عنها مناوراتهما الدبلوماسية

◘

وفى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى بالضبط سمع طرقا خفيفا على باب حجرته . ففتح الباب وهو لا يخلو من توجس . لانه يجب ان يكون فى غاية التيقظ فى حديثه مع هذه السيدة الالمانيــة الذكية المتوترة الاعصاب وفى الوقت نفسه يجب ان تظهر عليـه باستمرار دلائل الصراحة والبساطة

وكان وجه مسز كايبور مقطبا عندما دخلت مما يدل بوضوح على انها مكرهة من وجود اية صلة بينها وبينه . ولكنها جلست وبدأت بغير مقدمات تسأله عن معلوماته فى الادب الالمانى . وكانت تصحح له اخطاءه بدقة . وحين يستفسرها عن بعض المصاعب التى يجدها فى تركيب الجملة ، كانت تشرح له كل شيء بوضوح ودقة

وهذا يدل على انها اذا كانت تكره من صميم قلبها ان تكون بينها وبينه اية معاملة ، الا انها كانت عازمة على القيام بذلك العمل بكل امانة . وكان واضحا ايضا انها لا تملك الكفاءة للتعليم فحسب ، بل وتحب تلك المهنة أيضا . وبمرور الدقائق انطلق لسانها وابدت مزيدا من الهمة والاهتمام ، حتى صارت بحاجة الى جهد كي لا تنسى انها بازاء انجليزى بهيم همجى

وكانت ملاحظة ذلك الصراع تتيح لاشندن شيئا من الرياضــة المتعه . ولذلك كان صادقا عندما سأله كايبور بعد الغــداء عن الدرس ؛ فأجابه بأنه راض كل الرضا . وان مسز كايبور استاذة ممتازة وشخصية جديرة بالاعتبار

وهتف كايبور متهللا :

ـ الم اقل لك هذا ؟ انها اعظم امراة عرفتها !

وشعر اشندن ان كايبور وهو يقول هذا الكلام بطريقته الصاخبة الضاحكة كان صادقا مخلصا لاول مرة

وبعد يوم او يومين عرف اشندن ان مسز كايبور كانت تعطيه هذه الدروس لغرض واحد وهو تمكين زوجها كايبور من مزيد من القربى بينه وبين اشندن . فقد حصرت نفســها بدقة فى مسائل الادب والموسيقى والرسم . ولما حاول اشندن ان يخبرها وطرق موضوع

الحرب ، لم يكن منها الا أن أوقفته عند حده قائلة :

ـ اظن ان هذا موضوع يحسن بكلينا ان نتجنبه يا هر سومرفيل

واستمرت تعطيه الدروس بدراية تامة ، بحيث يظفر بمقابل تادل للاجر الذى يؤديه ، ولكنها كانت تأتى كل يوم بنفس الوجه الكالح المقطب . ولم يفارقها هذا الكره الا تحت حماسة التـــــدريس . وجرب أشندن جميع اساليبه من تقرب وامتنان وتواضع وتملق وحياء ، ولكنها احتفظت بعدائها وبرودها . انها من الطراز المتعصب من البسر . ووطنيتها وطنية عدوانية ولكنها نزيهة . وسر كراهيتها لانجلترا والانجليز انها ترى فى تلك الامبراطوية العقبة الاساسية فى وجه السيادة الالمانية على العالم

ان مثلها الاعلى عالم المانى تكون فيه جميع الامم غير الالمانية خاضعة لالمانيا ، كما كانت روما سيدة العالم القديم ، بحيث ينعم أهل الارض كافة بمزايا العلم الالمانى والفن الالمانى والثقافة الالمانية

ولم تكن هذه السيدة بلهاء . ففد قرات كثيرا فى لغــــات شتى وكانت تستطيع ان تتكلم عن الكتب التى قراتها كلاما ينم على ذوق وحس . وكانت لديها معلومات عن الرسم الحديث والموســـيقى الحديثة بهرت أشندن

وأعجبه ان يسمعها ذات مرة قبل الغداء تعزف مقطوعة صغيرة لطيفة للموسيقى الفرنسى دى بوسى . وكانت تعزفها فى أزدراء لان المؤلف فرنسى وموسيقاه خفيفة ، ولكن مع تقـــدير على مضض لرشاقتها ومرحها . ولما هنأها أشندن على اجـــادة العزف هزت كتفيها وقالت :

ـ موسيقى مضمحلة لامة مضمحلة

ثم بدات بيديها القويتين تعزف المقطوعة الاولى لاحدى سمفونيات بيتهوفن . ثم لم تلبث ان كفت قائلة :

ـ ماذا تعرفون ايها الانجليز عن الموسيقى ؟

فابتسم أشندن وقال لكايبور :

ـ مارأيك فى هذا ؟

ـ انا اعترف بهذه الحقيقة . فالقليل الذى أعرفه عن الموسيقى

تعلمته من زوجتى . وليتك تسمعها وهى تعزف شيئا ممتازا ، فان قلبك سيهتز حتما لروعة ذلك الجمال الصافى

فقالت الالمانية وقد لانت أساريرها لاطراء زوجها قليلا :

ــ انتم معشر الانجليز لا تحســـــنون الرســم ولا النحت ولا الموسيقى

فقال أشندن فى ابتسام :

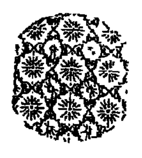
ــ ولكن نفرا منا يحسنون نظم الشعر

ــ هذا شيء أعترف به . أنتم شعراء . ولست ادرى السر

والتفتت الى زوجها قائلة :

ــ هيا يا جرانتلى الى قاعة الطعام فقد أعد الغداء

وتركا أشندن مفكرا




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع عشر

صداقة

واشندن بطبيعته شديد الاعجاب بالفضيلة ، ولكنه لا يشمئز ولا يستاء من الشر والرذيلة . وكان الناس فى بعض الاحيان يحسبونه انسانا بلا قلب ، لانه كان يهتم اهتماما ذهنيا بالآخرين من غير ان يتعلق قلبه بهم . وحتى القلة من الناس الذين تعلق بهم كانت عينه ترى فى نزاهة وجلاء جانبى المزايا والنقائص فيهم . فعندما يحب انسانا لم يكن حبه له لأنه عمى عن عيوبه ؛ بل لانه لا يبالى بتلك العيوب ، ويقبلها فى تساهل وهو يهز كتفيه ، أو يقارنها بمزاياه فتطغى المزايا على العيوب . ولانه كان يزن اصحابه بميزان حصيف لم يخب أمله فى أحد منهم ، ولذا لم يفقد صداقة أحد . ولم يطالب يوما صديقا له بأكثر مما يستطيع

وبفضل هذه السليقة استطاع آشندن ان يرقب آل كايبور ويدرس الشخصيتين من غير تجن ولا تحيز . فبدت له مسز كايبور غير معقدة التركيب ، وهى لهذا ايسر فهما من زوجها . كان واضحا جدا انها تكره اشندن ، مع ان ظروفها تحتم عليها أن تكون شديدة الهذب فى معاملته . مما جعل عواطفها تغلبها على أمرها فى بعض الاحيان ، فتكون لهجتها فى مخاطبته نابضة بالفظاظة . ولاحظ ايضا من الاختلاج الخفيف الذى يعترى شفتيها حين يربت زوجها بيده الغليظة على كنفها فى حنان ، انها شديدة الارتباط بزوجها ، وان الحب الذى بينهما صادق عميق مؤثر

وجعل اشندن يدون الملاحظات التى تتجمع له فى الايام القليلة الاولى الى أن تبت له ان مسز كايبور تحب زوجها لأن طبعها أقوى من طبعه ولأنها تشعر باعتماده عليها . كانت تحبه لاعجابه بها .

وكان من السهل ادراك أن هذه المراة العاطلة من الجمال ، المجردة من روح الفكاهة والاناقة والجاذبية ، لم تصادف فى حياتها رجلا اعجب بهـا قبل أن تلتقى بكايبور ، ولذا صار اعجابه جوهريا لأنوثتها . وأصبحت تستسيغ مرحه ونكاته الصاخبة كأنه طفل كبير كثير الضجه . فهى اقرب فى شعورها نحوه الى الامومة . وهى تحبه وترعاه وتغضى عن مواطن ضعفه ، التى لا شك فى انها لم تكن خافية على فطنتها

واما من جهة الجاسوسية فان أشندن على الرغم من تساهله الشديد ازاء الضعف البشرى ، كان ينظر الى خيانة المرء لوطنه نظير ثمن مالى نظرة قاسية . ولا شك ان زوجته كانت تعرف انه جاسوس . ولعل اتصال الالمان به فى البداية كان عن طريقها . ولعله لم يكن ليقبل القيام بذلك العمل الشائن لولا انها دفعته اليه دفعا . وهى امراة مستقيمة امينة تحب زوجها ، فأية وسيلة ملتوية لجأت اليها كى تقنع نفسها بشرعية اكراه زوجها على قبول مهمة معيبة وضيعة مثل هذه المهمة ؟ هذا سؤال لم يستطع اشندن أن يجد له جوابا على ضوء تصوره لتركيب مسز كايبور النفسى

اما جرانتلى كايبور فله شأن آخر . اذ ليس فيه ما يستدعى الاعجاب . ولكن اشندن لم يكن يبحث عن موضوع للاعجاب . وكان فى كايبور اشياء كثيرة غريبة وفذة وغير متوقعة فى ذلك المخلوق السوقى . وكان أشندن يرقب باستمتاع أساليب كايبور فى محاولة استدراجه الى حبائله . فبعد يومين اثنين من الدرس الأول اقبل كايبور بعد العشاء وقد صعدت زوجته الى حجرتهافألقى بنفسه فى مقعد بجوار أشندن . وجاء فريتزى فوضع راسه فوق ركبته . فقال كايبور :

ـ انه مخلوق بلا عقل . ولكن قلبه من ذهب . انظر الى هاتين العينين الحمراوين وخرنى ، هل رايت فى حياتك نظيرا لهما فى الغباء ؟ وما اقبح وجهه . ولكن ما اشد سحره !

ـ أله عندك مدة طويلة ؟

ـ من قبيل اعلان الحرب . وبهذه المناسبة ماذا رايك فى اخبار اليوم ؟

انني طبعا لا أتناقش فى هده الامور مع زوجتى . فلا تستطيع ان تتصور مدى سرورى اذ أجد مواطنا لى فى لوسرن افتح له قلبى

وقدم الى اشندن سيجارا سويسريا رخيصا وقبله اشـــــندن على سبيل التضحية الكريهة . واستطرد كايبور يقول :

ــ ان الالمان طبعا ليست امامهم اية فرصة للنصر . وكنت موقنا من هزيمتهم منذ دخلنا المعركة . والحقيقة اننى حزنت حزن العمر كله عندما أدركت ان جنسية زوجتى تقف بينى وبين الاشتراك فى أى عمل من أعمال الحـــرب . وقد حاولت أن اتطوع منذ اعلنت الحرب ولكنهم لم يقبلوا تطوعى بسبب ســنى . ولست أبالى أن اخبرك انه فى حالة استمرار الحرب الى أمد طويل فلا بد أن أصنع شيئا . ولا شـــك أن معرفتى بلغـــات كثيرة يمكن ان تجعلنى أداة نافعة فى الرقابة مثلا . وهذا فيما أظن هو الديوان الذى تعمل فيه. اليس كذلك ؟

وكان هـــــذا هـــو الموضـــــوع الذى يريد الوصـــول اليه . ولما كان اشندن يتوقع منه تلك الخطـــوة ، فقد رد عليه بالاجوبة التى أعدها من قبل . وادنى كايبور مقعده قليلا من اشندن وقال بصوت خفيض :

ــ انك طبعـــا لن تخبـــرنى بأى شيء من الاسرار التى لا ينبغى البوح بها . ولكن هؤلاء السويسريين فى لوسرن ضالعون مع الالمـــان بصورة واضحة ، ولا نريد أن نتيح لأحد منهم فرصـــة اســـتراق السمع

وشرع يخبر اشندن بعدة أشياء ومعلومات لها صـــفة سرية ثم قال :

ــ هذه امور ما كنت لاخبر بها احدا سواك . ولكن لى أصدقاء فى مناصب ذات نفوذ ولهم بى ثقة ..

وتظاهر اشندن بالثقة أيضا وافضى اليه بعدة أشـــياء لها صفة السرية . بحيث افترقا وكل منهما مستريح لما حصل عليه من ثقة الاخر . وايقن اشندن ان الة كايبور الكاتبة دائبة على العمـــــل فى اليوم التالى ، وان رئيس المخـــابرات الالمانية فى برن ســـيتلقى عن قريب تقريرا ممتعا جدا من كايبور

وذات مساء بعد العشاء صعد أشسندن متجها الى حجرته فمر بباب حمام مفتوح ورأى بداخله آل كايبور . وصاح كايبور بلهجته الودود

ـ ادخل . اننا نغسل فريتزى

وكان الكلب يلطخ نفسه دائما بالاقذار مع أن آل كايبور يعتزان جدا بنظافته . ودخل اشسندن فوجدهما منهمكين فى عملية الاستحمام . وقال كايبور وهو يدعك بالصابون فروة فرينزى :

ـ اننا مضطرون للقيام بهذه العملية ليلا . لأن آل فيزجيرالد يستخدمون هذا الحمام ويغضبهم جدا أن يستخدمه كلبنا ، ولذا ننتظر الى أن يناموا . هيا يا فرينزى اظهر حسن تربيتك وانا أصبن لك عينيك

واخذ الكلب يهز ذيله اظهارا لتهذيبه ودماثته . وكايبور لا يكف عن التنظيف وهو يثرثر ملاطفا كلبه كأنما يتحايل عليه تحايل الاب الحنون على طفله الصغير . ومسز كايبور تصغى وتبتسم ابتسامة يسيرة من غير ان تفارق مسحة الجد ملامح وجهها :

ـ والآن اذهب الى امك كي تتولى تجفيف جسمك !

فجلست مسز كايبور وتلقته بين ساقيها القويتين وجعلت تجففه جيدا الى ان طفر العرق من جبينها ... وتأثر أشسندن جدا بهذا المنظر العائلى الهادىء حتى انه كان يرتجف قليلا ، وهو يستأنف طريقه الى حجرته

وفى يوم من ايام الاحد اخبره كايبور انه سيذهب مع زوجته فى رحلة بالجبال ، وسيتناولان الغداء فى مطعم جبلى صغير ، واقترح على اشسندن ان يصحبهما وكل منهم على نفقته الخاصة طبعا . وكان قد انقضى على حضوره الى لوسرن ثلاثة أسابيع ، فقدر اشسندن انها مدة كافية للنقاهة بحيث يكون معقولا ان يخرج فى مثل تلك النزهة . وخرج الثلاثة معا . وقد قرر اشسندن ان يكون على حذر فليس من المستبعد ان يكون كايبور اكتشف صنعته الحقيقية ، فمن الافضل أن يكون على حذر ولا يقترب من حافة هوة فى الجبل ، لأن مسز كايبور فى هذه الحالة لن تتردد فى دفعه بيديها القويتين خدمة لوطنها . وفى الوقت نفسه لم يسمح لحذره ان يفسد عليه

استمتاعه بالرحلة والمناظر والجو البديع فى ذلك النهار

ولم يكف كايبور عن الكلام ، وروى حكايات كثيرة مضحكة . وكان يضحك من نفسه لأن العرق يتصبب من وجهه الاحمر البدين ، وأدهش أشندن بمعلوماته المستفيضة عن الازهار الجبلية . وكان ينتقى منها نماذج بديعة ، ويظهر فى عينيه الاعجاب والخشوع . فقالت زوجته :

— ان علم النبات هو هواية زوجى . واحيانا اضحك منه ومن تعلقه بالازهار . وفى كثير من الاحيان عندما نكون فى ضائقة لا تسمح لنا بدفع مطلوبات الجزار ، أراه ينفق كل مافى جيبه ليأتينى بباقة من الورد

وكان اشندن موقنا من صدق تعلق كايبور بالازهار ، وعمق حبه لها ولزوجته . وذلك يدل على رقة فى احساسه لم يعجب اشندن من وجودها لدى رجل دفع بالشاب الاسبانى الى الموت . فالقلب الانسانى ينسع للنقائض

وعندما وصل الثلاثة الى المطعم الجبلى المطل على البحيرة ، كان ممتعا حقا أن يرى كايبور يصب فى حلقه بتلذذ عظيم زجاجة مثلوجة من البيرة . وما كان بوسعك الا تتجاوب مع رجل يحب اللذات البسيطة فى الحياة بهذا السرور الواضح

وتناول الثلاثة الطعام فى الشرفة الجميلة وقد سحرهم المنظر الخلاب ، حتى أن الدموع طفرت الى عينى مسز كايبور ، فقالت :

— ما أشد خجلى من نفسى ! فبالرغم من علمى أن مذبحة عالية تدور من حولنا ، لا استطيع أن أشعر فى أعماق قلبى فى هذه اللحظة الا بالسعادة والامتنان

فتناول كايبور يدها وضغط عليها واخذ يناديها بألفاظ التدليل باللغة الالمانية ، فتأثر اشندن تأثرا عظيما وتركهما ليخلوا الى نفسيهما ، وذهب يتجول فى الحديقة . ثم جلس فوق مقعد حجرى هناك ، واخذ يقلب فى ذهنه مأساة هذا الانسان الغريب الاطوار الذى تجتمع فيه البساطة والرقة والخسة والمرح وخفة الدم . وحاول أن يحل اللغز الذى دفع به الى سلوك هذه الطريق الشائكة . ولم يجد حلا يرضى عقله . وتمنى لو ان الناس فى هذه

الدنيا كان كل منهم اما أبيض واما اسود بغير اختلاط أو تنويع

هل كايبور انسان طيب أحب الشر أم هو انسان سرير أحب الخير ؟ وكيف أمكن أن توجد فيه جنبا الى جنب ، وفى اتساق تام . كل هذه الصفات المتضادة ؟ انه خائن لا يؤنبه ضميره على خيانته بل يجد فيها لذة

انه الان موقن أن كايبور يجد سعادة وزهوا فى خيانة وطنه ، ولذا فمن العبث ان يحاول الوصول معه الى اتفاق لشراء خدماته لبلاده . وتأثير زوجته عليه شديد جدا ، وهو فى اعماق نفسه معتقد ان النصر معقود للالمان فى النهاية ، وهو يريد ان يكون مع الفريق الظافر

لا حيلة فى الامر اذن ، ويجب الايقاع بهذه الشخصية الفريدة ولكنه حتى الان لا يعرف كيف سيكون سبيله الى ذلك

ونبهه صوت آل كايبور مقبلا نحوه :

ــ أين ذهبت ؟ أنت معذور فى الاختلاء بنفسك أمام هذا الجمال الساحر . وهذا طبعا تغيير كبير تشعر به بعد معيشة الحرب المرهقة للاعصاب فى انجلترا

ــ الفرق كبير جدا

ــ وبهذه المناسبة هل وجدت صعوبة فى مبارحة البلاد ؟

ــ لم أجد أدنى صعوبة

ــ قيل لى أنهم يدققون كثيرا على الحدود فى هذه الايام

ــ لم اجد اية صعوبة ولا أظنهم يدققون كثيرا مع الانجليز . حتى لقد خيل الى أن فحص جواز السفر كان صوريا

وتبادل الزوجان نظرة خاطفة حار اشندن فى فهم مغزاها . ولعل كايبور يفكر فى احتمال العودة الى انجلترا لغرض ما

واقترحت مسز كايبور أن يعودا الى لوسرن ...

وبعد يومين من هذه النزهة ايقن اشندن ان فى الجو شيئا .. ففى غضون درس الصباح قالت له مسز كايبور :

ــ سافر زوجى الى جنيف اليوم لعمل يخصه

ــ وهل سيمكث هناك طويلا ؟

ــ كلا . يومين لاأكثر

وأحس احساسا غامضا أنها تكذب وخطر له ان كايبور أستدعى الى برن لمقابلة رئيس المخابرات الالمانية هناك . ولذلك انتهز اشندن الفرصة وقال للخادمة أثناء الغداء :

ـ عندك اليوم عمل أقل يا آنسة . فقد سمعت أن الهر كايبور سافر الى برن

ـ نعم ، ولكنه سيعود غدا

ولم يكن هذا انباتا كافيا لظنونه ، ولكنه علامة على أن رأيه قد يكون صحيحا . وكان يعرف فى لوسرن سويسريا على استعداد فى اوقات الضرورة للقيام بما يكلفه به من مهام ، فطلب منه اشندن ان يحمل خطابا الى برن . وكان الخطاب يوصى بالبحث عن كايبور هناك وتعقب حركاته

وفى اليوم التالى ظهر كايبور مع زوجه على مائدة العشاء . ولكنه اكتفى بأن هز راسه لأشندن . وبعد الطعام صعد الزوجان توا الى حجرتهما والاضطراب باد عليهما ، حتى أن كايبور كان يسير على غير عادته مقوس الكتفين لا ينظر يمنة ولا يسرة

وفى اليوم التالى تلقى أشندن الرد على خطابه من برن مع الرسول الخاص بما يؤيد ظنونه . فقد كان كايبور هناك وقابل رئيس المخابرات الالمانية ، فأيقن اشندن ان المقابلة كانت صدمة لكايبور . وأن الالمان سئموا دفع مرتب كايبور وهو قابع فى لوسرن لا يؤدى أى عمل . وغالبا يكون قد استحثه على العودة الى انجلترا لخدمة الالمان هناك

هذا مجرد تخمين طبعا . ولكن صناعة الجاسوسية تعتمد على التخمين والفطنة الى حد كبير . وكان اشندن يعلم من جوستاف أن الالمان يريدون ارسال شخص ما الى انجلترا للاشراف على جواسيسهم هناك . فان صح ذلك التخمين فقد سنحت الفرصة لاعداد الكمين





الفصل الخامس عشر

الضخ

وفى اليوم التالى عندما حضرت مسز كايبور لتعطيه درسا كانت واجمة وغير مستقرة ويبدو عليها الاعياء . وادرك اشندن أن آل كايبور قضيا معظم الليل يتكلمان . وتمنى لو عرف ما تبادلاه من حديث ، وهل استحثته على السفر أم حاولت أن تثنيه عنه

وجعل أشندن يرقبهما اثناء الغداء ، فلاحظ انهما لم يتبادلا كلمه واحدة على خلاف العادة ، ثم غادرا المائدة مبكرين . ولكن عندما انصرف اشندن رأى كايبور جالسا فى البهو بمفرده فبادر اشندن قائلا :

ـ اهلا بك . كيف حالك ؟ لقد كنت فى جنيف

ـ هكذا قيل لى

ـ تعال تناول قهوتك معى فزوجتى المسكينة مصابة بالصداع . وقد قلت لها أن من الخير أن ترقد قليلا . والمسألة أن المسكينة منزعجة ، لأنى أفكر فى السفر الى انجلترا

فضبط اشندن اعصابه ولم يظهر عليه اى رد فعل وقال :

ـ وهل ستطول غيبتك هناك ؟ سنفتقدك

ـ الحقيقة انى سئمت هذا التعطل . ويبدو أن الحرب ستطول كثيرا ، وليس فى استطاعتى أن ابقى هنا الى الابد ، فضلا عن انى لا أملك الموارد الكافية للاقامة المستديمة هنا . فيجب أن أكسب قوتى . ومهما كانت زوجتى المانية ، فلا بد أن أقوم بنصيبى من الواجب الوطنى . وزوجتى متمسكة بوجهة نظرها الالمانية ولا اكتمك انها مستاءة . وأنت تعرف خصال النساء فى هذه الامور

وكان واضحا فى نظرات كايبور انه خائف من السفر الى انجلترا

ويريد البقاء فى سويسرا . ولكن البقاء معناه ضياع المرتب الشهرى، وهو بطبيعة الحال كان يريد من زوجته أن تحرضه على البقاء . ولكنه لم يجد لديها ما ينتظر . ولعله لم يستطع أن يظهر لها ما يكنه من الفزع

وسأله أشندن :

ـ وهل ستأخذ زوجتك معك ؟

ـ كلا . انها ستبقى هنا

ومعنى ذلك أن مسز كايبور ستتلقى خطاباته وتحولها الى رئيس المخابرات فى برن ليستخلص ما فيها من معلومات شفرية

واستطرد كايبور :

ـ لقد طال بعدى عن انجلترا ولست أدرى كيف أحصل على عمل يساعد فى المجهود الحربى الان . فماذا كنت تصنع لو كنت فى مكانى ؟

ـ لا أدرى . ما هو نوع العمل الذى تفكر فيه ؟

ـ اظننى أستطيع أن اقوم بمثل العمل الذى تمارسه ، فليتك تعطينى خطاب توصية الى أحد معارفك فى ادارة الرقابة

ولا شك أنه سيكون كسبا عظيما للألمان أن يكون لهم جاسوس فى ادارة الرقابة . وادرك أشندن أن كايبور أخبر الرئيس فى برن أن موظفا فى الرقابة البريطانية يستجم فى لوسرن فرسم له تلك الخطة

ـ ان رئيس الادارة يعزنى كثيرا وأستطيع أن اعطيك جواب توصية ان شئت

ـ أكون شاكرا جدا

ـ ولكنى بطبيعة الحال سأذكر له جميع الحقائق المتعلقة بك . وسأقول أيضا أنى التقيت بك هنا ولم اعرفك الا منذ أسبوعين

ـ طبعا طبعا . ولا ادرى حتى الآن هل استطيع الحصول على تأشيرة بالدخول أم لا

ـ لا اظنك ستجد أدنى صعوبة

ووقف كايبور فجأة وقال :

ـ يجب أن أصعد لارى زوجتى وأطمئن عليها . متى ستكتب

لى الخطاب ؟

ــ فى أى وقت تشاء . هل ستسافر فورا ؟

ــ بأسرع مايمكن

وتركه كايبور . وبقى اشندن ربع ساعة ثم اسرع الى حجرته وحرر عدة خطابات منها تقرير الى الكولونيل . وتعليمات الى السفارة فى برن كى تعطى كايبور تأشيره الدخول الى انجلترا فور طلبها . وكتب أيضا خطاب التوصية الذى طلبه كايبور ...

وفى ساعة العشاء سلم أشندن الى كايبور خطاب التوصية

وبعد يومين غادر كايبور لوسرن وبقى أشندن ، واستمر يتلقى دروسه اليومية على يد مسز كايبور ، وقد اصبح لسانه طلقا فى اللغة الالمانية وكثرت أحاديثهما عن جينه وعن الفن والحياة والرحلات . وكان فريتزى يقبع بجوار مقعدها فى هدوء . وتجذب اذنيه وتقول :

ــ ان المسكين يفتقد سيده . الحقيقة أنه لا يحب غره ، ويتقبلنى اكراما لخاطره فقط

وبعد انتهاء الدرس فى كل صباح كان اشندن يذهب الى مكتب شركة كوك ليسأل عن خطابات له فقد جعل عنوانه هناك . وكانت التعليمات الصادرة اليه ألا يغادر لوسرن الا بعد صدور أوامر جديدة . فلم يكن امامه سوى الانتظار

وبعد أيام قليلة تلقى خطابا من القنصلية فى جنيف يفيد أن كايبور طلب تأشيرة الدخول وحصل عليها ورحل عن طريق فرنسا . ولما قرأ اشندن هذه الانباء ذهب للترهة على الاقدام على شاطىء البحيرة . وعند عودته رأى مسز كايبور خارجة من مكتب كوك . فأدرك انها جعلت عنوان مراسلاتها هناك أيضا . وحياها قائلا :

ــ هل جاءتك انباء من هر كايبور ؟

ــ لم تصلنى خطابات منه بعد

وسار بجانبها وكانت قلقة بعض الشىء . ولكن فى اليوم التالى لاحظ أنها كانت غير مستقرة أثناء الدرس . وكان البريد يصل عند الظهر . فاستأذنت قبل انتهاء الدرس بخمس دقائق . وكان

اشندن يعلم انها لن تتلقى من كايبور اية خطابات

وبعد قليل ذهب اشندن الى مكتب كوك فوجدها واقفة هناك ممتقعة الوجه . ولما راته صاحت :

ـ لقد وعد زوجي أن يرسل خطابا من باريس . ولذا انا واثقة ان هناك رسالة لي في البريد . ولكن هؤلاء الاغبياء يقولون انه لايوجد شيء . يالهم من مهملين ! هذه فضيحة !

ولم يدر اشندن ماذا يقول وسال عن خطاباته . وسألت مسز كايبور الموظف عن موعد البريد فقيل لها انه الخامسة بعد الظهر

وفي اليوم التالي جاءت تعتذر اليه عن عدم استطاعتها تلقينه الدرس . وكان واضحا ان جفونها لم تغمض طول الليـــل . وفي المساء وصلته مذكرة منها بانها مضطرة لايقاف الدروس

ولاحظ في الوقت نفسه انها انقطعت عن تناول طعامها في حجرة المائدة . وصارت تقضي اليوم كله في حجرتها ، ولا تخرج الا للذهاب الى مكتب كوك . وشعر اشندن بالاسف الشديد لها وهي تقضي الساعات تلو الساعات في قلق وفزع

واخيرا اعطاه موظف كوك ذات صباح خطابا من الكولونيل على هيئة رسالة من الرسائل التجارية العادية :

« سيدي العزيز . ان البضاعة التي ارسلتموها من لوسرن وصلت في موعدها المحدد . ونشكر لكم دقة تنفيذكم لتعليماتنا »

وايقن اشندن ان كايبور لقي مصيره فسرت في جسده رعـــدة وهو يشتري من مكتب كوك تذكرة سفر الى جنيف

وفي هذه اللحظة دخلت مسز كايبور فهالته الحلقة السوداء حول عينيها وشحوب الموت الذي يعلو سحنتها . وترنحت في مشيتها الى ان وقفت امام الموظف وسالته عن بريدها . فهز الموظف راسه سلبا . فتوسلت اليه ان يعيد الفحص فامتثل اشفاقا عليها

وعندئذ حصل شيء رهيب : فقد القى فريتزي راسه الى الوراء ثم عوى عواء حادا متصلا يمزق الاعصاب . فنظرت اليــه مسز كايبور في فزع وقد برزت عيناها من محجريهما . واصبح ماكانت تخشاه يقينا مقطوعا به لا سبيل الى المماراة فيه ...

« انتهت »







القصص العالمية للجميع

الفرسان الثلاثة "جزئين"	اسكندر ديماس
الكونت دي مونت كريستو	«
ذهب مع الريح "جزئين"	مارغريت ميتشل
رجال ونساء .. وحب	جون شتاينبك
ليلة غرام	سومرست موم
كنت جاسوساً	«
غادة الكاميليا	مارسيل موريت
جريمة في الريفيرا	جورج سيمنون
الأرض الطيبة	بيرل باك
عذارى المعبد	«
ايفانهو "أو الفارس الأسود"	سير والتر سكوت
دافيد كوبرفيلد	شارلز ديكنز
أحدب نوتردام	فيكتور هيغو
الام فرتر	يوهان جوته
العجوز والبحر	ارنست همنغواي
سوف تشرق الشمس	«
الكأس الأخيرة	اجاثا كريستي
عدالة السماء	«
القاتل الخفي	«
الرجل الغامض	«
غادة طيبة	«
عذراء وثلاثة رجال	جيمس هيلتون

مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية حلب السالمية الطبعة الجزء